الصين والعرب

عبر التاريخ

تأليف

محمد محمود زيتون

الكتاب: الصين والعرب عبر التاريخ
الكاتب: مُحَمَّد محمود زيتون
الطبعة: ٢٠٢١



الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر– الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

زيتون ، مُحَمَّد محمود
الصين والعرب عبر التاريخ/ مُحَمَّد محمود زيتون
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٧ – ١٥ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٨٨٩ / ٢٠٢٠

الصين والعرب
عبر التاريخ





تقديم

توثقت العلاقات بين العرب والصين منذ أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان، ومنذ ذلك التاريخ الطويل إلى يومنا هذا، وللصين في "التراث العربي" حظ موفور، سبقوا به سائر الأمم المتحضرة، وعلي تباين الأوضاع، من معالم الحضارة، ومعارف الثقافة

وكان تناول المؤلفين العرب للآثار الصينية على جميع أشكالها أمراً يدعو إلى الدهشة والعجب، وخصوصاً إذا عرض على المقاييس المنهجية الحديثة، ذلك أن العرب – فيما تناولوه عن الصين –كان رائدهم الصدق في الرواية، والدقة في المشاهدة، والبعد عن الأهواء والنزاعات؛ فترى الرحالة ابن بطوط مثلا، على الرغم من المضايقات التي صادفته بالصين، وعلى الرغم من مظاهر الحفاوة التي قوبل بها هناك من التجار والأمراء الحاكمين على السواء، لا يتورع من الحديث عن الصين بقلم رزين مبرأ من المدح والقدح.

وإذا كان هذا هو حظ العرب من "المنهج" الذي توصلوا به إلى غاية لا وراءها من حيث الصدق والوثاقة، فإنهم لم يكونوا أقل حظاً من هذا التوفيق، من حيث "القيمة العلمية" التي على أساسها يقاس كل عمل ثقافي، مهما يكن لونه؛ فالعرب ولا شك كانوا أيضاً أسبق من غيرهم في تنمية الثروة الفكرية، على مستوى قومي، بل إنساني، بما سجلوا من

معلومات تنبض بالحياة عن بلاد نائية عنهم بآلاف الأميال، والمسالك إليها غير مأمونة العواقب، من أخطار البر والبحر، ومن الكائنات الطبيعية سواء في ذلك الوحوش والأناسي.

ولسنا نزعم أن انطباعات الصين عند العرب وجدت لديهم التنظيم والتصنيف، مما هو ظاهر في المؤلفات الحديثة، ولكن من العدل، وليس من التبرير لعجز أو تقصير، أن نقول إن مادة العرب عن الصين كانت غزيرة ووافية ومنوعة، بحيث تستطيع بكل جدارة أن تغطي جميع الجوانب الثقافية، إذا وجدت من يؤلف بين شتاها، ويخلص غثها من سمينها. ويرد فروعها إلى أصولها. عندئذ يحق لنا أن نقول عن العرب إنهم حقاً أول رواد الثقافة الاجتماعية، بما قدموه لعلم الأجناس البشرية أو (الأنثروبولوجيا)، وهذا الكتاب، على صغر حجمه، محاولة متواضعة لاقتحام هذا الباب.

الإسكندرية

محمد محمود زيتون

الفصل الأول

تجارة... أم حضارة

العرب والعالم:

قبل أن تبزغ شمس الإسلام على جزيرة العرب، ألف أهلها رحلتين كل عام من مكة، إحداهما إلى الشام صيفاً، والأخرى إلى اليمن شتاء؛ فكانت هاتان الرحلتان بداية لتكوين علاقات جديدة بين العرب وبين غيرهم من الشعوب.

ولئن كانت هذه العلاقات، قد اتسمت –كما يبدو للنظرة الأولى– بالطابع التجاري، فإنها كانت بمثابة الطريق الذي درجت عليه السياسة الخارجية للعرب، في صورة بدائية.

ولما انتشر الإسلام في أرجاء الجزيرة، انتقل العرب انتقالاً أبعد مدى، مما كانوا يهدفون إليه من قبل، فعرفوا– عن طريق الدعوة والفتح– بلاداً كثيرة كالحبشة ومصر وبلاد الفرس والروم والمغرب، وعبروا إلى أوروبا، بعد الفتح الأندلسي، واختراق جبال البرانس، وركبوا البحار وفتحوا الجزر، كما ولوا وجوههم شطر المشرق ففتحوا فارس والهند والسند والصين، وعززوا مراكزهم في تلك البلاد التي وردت في التراث العربي قديمه وحديثه شعراً ونثراً.. وكان لهذا التراث أكبر الفضل على الثقافة الإنسانية، لأنه احتفظ بمعالم هذه الروابط والصلات، بين العرب والأمم التي عرفوها، واستطاع

الغربيون والمستشرقون أن يترسموا – في أحاديثهم عن الحضارة العربية – خطى العرب أينما رحلوا وحلوا، وأن يتبينوا مواطن التأثير والتأثر، في تفاعلهم مع هذه الأمم، القاصي والداني منها على السواء.

ما أبعد الصين!..

كان العربي القديم – إذا أراد التعبير عن المكان البعيد – ذكر الساحل الشرقي للجزيرة العربية؛ فهذا عمار بن ياسر يقول للنبي: "والله لو هزمونا حتى أبلغونا سعفات (هجر) لعرفنا أننا على الحق، وأنهم على الباطل". وكان النبي عليه السلام، في معرفته بالبلدان، أبعد مدى، وأوسع أفقاً من عمار وغيره، فقد كان يذهب في التجارة إلى الشام قبل البعثة... وروي عنه قوله: "اطلبوا العلم ولو في الصين"، وما أبعد الصين عن هجر عاصمة البحرين الواقعة على ساحل الجزيرة شرقاً.

ومن المؤكد أن النبي لم يرحل إلى الصين، ولا إلى ما دونها كثير، ولكن هكذا جاءت الرواية عنه، وسواء كان هذا الحديث صحيحاً أم ضعيفاً، فإن علماء الحديث قد اتفقوا على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، وأكد ذلك الإمام الحافظ ابن دقيق العيد الذي توفي سنة ٧٠٢هـ.. وفي مثل هذا الحديث حفز للعرب على اختراق الآفاق في طلب العلم، ولو كان ذلك في الصين، مضرب الأمثال في البعد والاختلاف، ومهما يكن من شيء فقد ورد ذكر الصين علي لسان العرب في فجر الإسلام، ثم فيما بعد ذلك من العصور، ولكن يحق لنا أن نتساءل: لماذا أراد العرب أن يعرفوا بلاد الصين؟ ومتى عرفوها؟ وكيف وصلوا إليها؟

وعلى يد من؟ ثم من؟ وما أثر العرب في الصين؟ وما أثر الصين في العرب؟ وكيف تطورت هذه العلاقات بينهما عبر السنين؟.. وهل كان لهذه العلاقات أثرها في إثراء الثقافة العربية، وبالتالي في المعرفة الإنسانية؟

وفيما يلي من الصفحات محاولة جادة للإجابة عن هذه الأسئلة، استناداً إلى أوثق المصادر العربية والإفرنجية التي دبجتها أقلام عربية وصينية، بعضها قديم، وبعضها حديث، منها المترجم ومنها الأصيل، ولعل في كشف اللثام عن هذه الآثار ما يزيد الصلات التي بين العرب والصين قوة، خصوصاً أن الصين وحدها تشتمل على ربعه سكان العالم، وتعمل الآن في ميادينها العمرانية بسرعة مذهلة، بعد النكبات والمحن التي تلقتها من أيدي المستعمرين جملة وفرادى، فاستطاعت بنضالها المرير أن تلحق بركب الحرية، وتمضي في سبيل السلام.

لماذا.. الصين؟

نعم.. لماذا أراد العرب القدامى أن يعرفوا بلاد الصين، على الرغم من طول المسالك ووعورتها، ومع اختلاف الظواهر الجغرافية، والمظاهر الحضارية فيما بين الأمتين؟

التجارة لا شك هي أهم البواعث التي حملت العرب الأولين على تبادل المنافع مع غيرهم، ولو مع أهل الصين، وإذا كان العرب – قبل الإسلام – قد فعلوا ذلك، فخيراً فعلوا، وبرهنوا على حبهم للحركة والانتقال، والتماسهم كل وسيلة للتعارف مع سائر الشعوب.

وإذا كان الإسلام قد فرض الحج على الناس مرة في كل عام، فيفدون

على البيت الحرام رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق؛ فقد شرع الله للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها هذه العبادة ليشهدوا منافع لهم في موسم الأمان والإيمان.

أيهما كان الأسبق في الاتصال بالآخر؟ نستطيع أن نقول إن الصين مثلا كانت السباقة، عندما استقر بربوعها أولاد نوح، ثم صنعوا السفن وأرسلوا عليها إلى سائر الأمم مندوبين يحملون الهدايا ويوجهون الدعوة لزيارة البلاد النائية المتطرفة، قد يكون هذا صحيحاً إذا صدقت الرواية التاريخية، ولكن مما لا شك فيه أن العرب بعد ظهور الإسلام حرصوا علي إذاعة دعوته في المشارق والمغارب، فحملها التجار والغزاة، ونهضوا بها، ووجدت حيثما كانوا تربة صالحة فنمت وترعرعت، وعلى ذلك يكون "دين العرب" الجديد، حافزاً قوياً للعرب على التعرف بالأمم.

حافز آخر، هو أن قصة ذي القرنين وسد يأجوج ومأجوج، قد وردت في القرآن الكريم فكان من الطبيعي أن يشدوا الرحال للوقوف على موضع السد وموطن يأجوج ومأجوج، والتحقق من أقوال المفسرين والمحدثين بهذا الصدد.

وذلك كما يقولون من باب العلم بالشيء، فهل كان ذلك بالصين؟ على كل حال لقد جاء في الحديث الشريف "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، فليطلبوه ولو في الصين. وأخيراً نرى أن العرب ممن تتشبث بالقول الحكيم عقولهم، وتشرئب له أسماعهم، ويحفزهم ذلك إلى

التماس غاياته وأهدافه، فقد قيل "إن[1] الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض، أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب". وهذا التفوق في الصناعة عند الصين، مما لمس العرب عجائبه وغرائبه، فجلبها التجار إلى بلادهم، ودارت حولها أحاديث المجالس، فالتقطها المؤلفون وسجلوها، وأضاف إليها الرحالة ما شهدوه بأنفسهم.

من أجل هذا كله أبرز العرب معالم الحضارة الصينية ومعارف ثقافتهم، ومهما يكن من وفاق أو خلاف في الكتابات العربية عن الصين، ومهما يكن مصدرها شهادة أو رواية أو دراسة فإن العرب بعملهم هذا كانوا الرواد الأولين في ميدان علم (الأنثروبولوجيا).

في سبيل التجارة:

وقديماً، كان العرب أهل حركة ونشاط، في البر والبحر على السواء، وكان لبعض القبائل العربية قوافل باسمها تجتاز الممالك والأقطار، صاعدة هابطة، بين السهول والبطاح، وكان لبعضها الآخر سفنها الشراعية، تمخر عباب الخلجان والبحار والمحيطات، يستقلها أهل التجارة، وعشاق المغامرات، من الجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة والسفراء والغزاة.

وتعتبر المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب من أقدم حضارات العالم وأرقاها، وأحفلها بمظاهر الحياة على اختلاف جوانبها، وكانت "سبأ ومعين" مهد الحضارة الحميرية من سنة ١١٥ق.م حتى سنة ٥٢٥م، تلك الحضارة التي ازدهرت أيما ازدهار بسبب الموقع الذي تتميز به؛ فهي ملتقى خيوط

---

[1] نفح الطيب.

شبكة المواصلات بين الشرق والغرب، فتوثقت عن طريقها الصلات العربية مع الهند والصين وسواحل إفريقية وداخلها وروسيا.

في هذه القرون السحيقة، لم تكن أوربا شيئاً عن إفريقية غير شواطئها، وكان وجود بلاد الشرق الأقصى في نظر الأوروبيين إحدى أساطير الأولين، أما العرب فكانوا أسبق الشعوب ارتياداً لهذه البلاد.

وبلا شك، كانت طرق القوافل أيسر وأوفر من طرق الملاحة، فقد كانت متاجر الصين تأتي عبر المدن الشهيرة مثل سمرقند وبغداد ودمشق وحلب وسائر مرافئ البحر الأبيض المتوسط، ومنها إلى أوربا.. وتتصل بالهند كذلك – عن طريق القوافل لذي مرورها بفارس وكشمير وموانئ الخليج الفارسي وأشهرها (سيراف)، ومنها تقلع المراكب إلى عدن حيث تلتقي السلع الوافدة من الصين والهند بحراً، آخذة طريقها إلى السويس والإسكندرية، وموانئ الشام ومدنها، فيأتي أرباب التجارة من جنوة وفلورنسا وبيزا وكتلونية لنقل متاجر الشرق وكنوزه إلى أوربا، التي كان يبهرها بريق الطرائف الشرقية أياً كان نوعها ومصدرها.

على أن أهم تلك الأسواق التجارية ما كان في عدن التي طالما تبودلت فيها منتجات الهند والصين مع منتجات الحبشة ومصر، وأرقاء النوبة، فضلا عن العاج والذهب، كل ذلك كان يستبدل به هناك الحرير والخزف وغيرهما من واردات الصين. وكذلك كان التجار – ومعظمهم من العرب – يجلبون إلى الصين المنسوجات الكشميرية والعطور، ومنتجات بلادهم أيضاً من منسوجات صوفية ومرجان وخيول، مع نفائس أوربا

كالأجواخ القرمزية الزاهية الألوان التي اشتهرت بها البندقية.

ولما كان أهل الصين وعلى رأسهم الملوك والأباطرة يغرمون بشراء الخيول وانتقائها من أجود الفصائل، فقد كانت للصين تجارة رائجة فيها مع البلاد المجاورة لها من جهة الغرب مثل سمرقند وبخارى وخيوا والعراق، وهذه البلاد بدورها أصبحت تتصل بالصين للتجارة عن طريق القوافل بصفة دورية منتظمة، وقد أسهب بدر الدين حي الصيني مؤلف كتاب "العلاقات بين العرب والصين" في تحديد معالم طرق تلك القوافل، قبل الميلاد بقرن من الزمان.

ولما زادت الروابط التجارية في القرن الثاني للميلاد بين الصين والرومان، لم يعد الأوروبيون يقفون بتجارتهم عند الشام وأرمينيا ونصيبين، وإنما وجدوا الطريق ممهداً لهم إلى الصين عبر بلاد الفرس، فقصدوا إليها على سبيل المتاجرة والمغامرة.

وأراد الفرس أن يستبدوا بتجار أوربا الذين يعبرون بلادهم فيما بين الغرب والشرق الأقصى، فتحولت التجارة من طريق القوافل البرية إلى طريق البحر، مما شجع (ماركوس أوريليوس أنطونيوس) على السفر إلى الصين سفيراً للتجارة سنة ١١٦ ميلادية. وليس معنى هذا أن الطرق البرية قد انقطعت نهائياً فيما بينهما عبر الشام ومصر، بل استمرت حتى لنرى اسم (الإسكندرية) محرفاً في كتابات المؤلفين الصينيين في القرن الثالث الميلادي، كما ورد ذكر غيرها من موانئ مصر والشام، مما يدل بصفة قاطعة على أن الأقطار العربية كانت همزة الوصل الوثيقة بين الشرق

والغرب قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

ومما يروى أن عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني قال يوماً لخالد بن الوليد: ما تذكر؟ فقال: أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون، كما أن أهل الصين كانوا يطلقون كلمة (تاشي) على العرب. وأغلب الظن أنها محرفة عن كلمة (تاجر)، وفي هذا دليل على وجود العنصر العربي بالصين، ممتازاً في ميدان التجارة بالنسبة لغيره من الوافدين على البلاد. وثمة رأي آخر يقول إن هذه الكلمة الصينية ربما تكون تحريفاً للكلمة الفارسية (تازي) ومعناها العرب. ومهما يكن من شيء فإن العرب قد عرفوا الصين إما عن طريق البحر مباشرة وإما عن طريق البر عبر بلاد العجم، أما عن طريق البر فقد تبودلت الصلات بين الطرفين عبر (جانج– آن) والعراق. وفيما بين كانتون والخليج العربي، فسمع الصينيون كثيراً عن العرب فيما قبل الإسلام على الأقل بقرنين من أنفسهم ببلاد العرب.

أما المؤلفات الصينية فقد حفلت بذكر العرب وبلاد العرب ونتف من تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب "جيوتانج شو" أي تانغ القديم، وفيه فصول ضافية عن العرب. وكذلك كتاب "شنتانغ شو" أي تانغ الجديد، وأيضا كتاب "تونج ديان" وفيها جميعاً أخبار عن أفواج العرب القادمين إلى الصين منذ بداية النصف الأخير من القرن السابع الميلادي، وهكذا بدأ العرب يتعرفون على أحوال الصين في سبيل التجارة.

ومن أجل الحضارة:

لم تكن التجارة هي الحافز الوحيد للعرب على الاتصال بالصين، فإن الحضارة العربية التي علا كعبها في اليمن، ورسخت قدمها في (حمير) أو (تبع)، قد أخذت طريقها إلى الصين، في خطى ثابتة، عندما غزا تبع أسعد أبو كرب بألفي فارس من التبابعة، تلك الصحاري الشاسعة التي تعرف اليوم باسم (هضبة التبت)، حيث الهواء الطيب والخير العميم "ولا يزال الإنسان أبداً بها ضاحكاً مسروراً ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار، والطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام، وفي أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية وسميت بذلك بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمير" فهم ثبت أي ثبتوا فيها، واستطابوها مقراً ومقاماً، وعمروها، ووطدوا صلاتهم بمن حولهم حتى صارت (التبت) على مر الأجيال داخلة في نطاق الصين، ولا يغفل العرب المؤرخون والجغرافيون ذكرها كلما ذكروا الصين، لأنها جزء لا يتجزأ منها.

وهناك تحولت التبت من البداوة إلى الحضارة، فقد نشر الحميريون بها ما جاءوا به من أقصى الجنوب من جزيرتهم، وتعلم أهل التبت منهم القراءة والكتابة، وأعدوا قسيهم وسهامهم للدفاع عن كيانهم عند المنافذ والأبواب التي تؤدي إليهم عند (مرو) و(باب الصين) و(سمرقند) التي أولها تحريف لكلمة (شمر) أي (شمر يرعش) أحد ملوك التبابعة، وقد سميت باسمه اعتزازاً بأمجاد الأبوة والأجداد، وفي هذا يقول دعبل الخزاعي من أبيات مشهورة مفاخراً بالحميريين المهاجرين إلى التبت:

وهـم كتبـوا الكتـاب (ببـاب مـرو)

و(باب الصـين) كـانوا الكاتبينـا

وهــم سمــوا الســهام (بســمرقند)

وهـم غرسـوا هنـاك (الشبسـتينا)

وفي صـــم المغـــارب فـــوق رمـــل

يســـيل بلونـــة ســـيل الســـنينا

"وكانوا يسمون ملوكهم (أي في التبت) تبعاً لاتباع اسم تبع ملك اليمن ثم تغيرت لغاتهم عن الحميرية" كما يقول المسعودي.

وإذا نحن تابعنا هؤلاء المهاجرين العرب إلى التبت، مع المؤرخين، وجدناهم في مطلع القرن الرابع الهجري على فريقين: أحدهما لم تمتد إليه الدعوة الإسلامية فظل حتى ذلك التاريخ على عبادته الأولى التي جاء بها من اليمن، والآخر بلغته من الدعوة ومضات خاطفة، لم تسلم من الشرك والوثنية، وفي كلا الحالين كان نظام الفريقين لا يزال قبلياً.

فهذا أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبغي المتوفى سنة ٣٣١هـ وعضو بعثة أمير خراسان نصر بن أحمد الساماني يحكي لنا عن رؤية مبعوثي (قالين بن الشخير) ملك الصين إلى هذا الأمير وقد بعثهم يخطبون ابنه الأمير المسلم لابن ملك الصين، فلم يقبل لأن الشريعة تمنع زواج مسلمة بكافر، وإذ أصر على ذلك طلبوا منه أن يسعوا في زواج ابنه من إحدى بنات ملك الصين فرضي، وخرج الفد في ذلك، ومعهم أبو دلف الذي وصف لنا أحوال كل القبائل التي مر بها في طريقه، حتى وصل إلى قبيلة (البغراج)

فوجد "لهم أسبلة بغير لحى، يعملون بالسلاح ولهم ملك عظيم يقول إنه علوي من ولد يحيى بن زيد" ووجد عنده أبو دلف مصحفاً مذهباً على ظهره أبيات من الشعر في رثاء زيد.

وأدرك أبو دلف أنهم يعبدون ذلك المصحف، وأنهم يقولون: "زيد ملك العرب" و"علي بن أبي طالب إله العرب" وأن الحكم وراثة في العلويين من ذرية زيد. وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم شاخصين إليها بأبصارهم، وبزعمهم أن "إله العرب" ينزل منها ويصعد إليها، وملوك الزيدية عندهم ذوو أنوف قائمة، وعيون واسعة، يعيشون على الدخن ويأكلون لحوم الضأن الخراف دون النعاج.

وهناك نقول: أليس في وجود الزيدية بالتبت، دليل على انتقال موجة من مهاجري اليمن، وهي موطن الزيدية إلى تخوم الصين، حيث استقر آباؤهم القدامى من حمير منذ خمسة قرون على الأقل؟

ويمضي أبو دلف في وصف القبائل التي ينزل بها حتى يحدثنا عن قبيلة تبت ولهم مدينة من القصب، وفيها مسلمون ونصارى ومجوس، ويؤدون الجزية لملك الزيدية العلوي البغراجي، ونظام الحكم عندهم انتخابي لا وراثي كما عند القبيلة السابقة، وعندهم سجن يودعون به المجرمين، وصلاتهم إلى قبلة الإسلام.

وينتقل صاحبنا حتى يصل إلى موضع يقال له "القليب" وفيه قبائل بدوية عربية فيقول: "فيه بواد عرب ممن تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون

قلمنا، يعبدون الأصنام.." والملك فيهم وراثي في الأسرة الحاكمة، ولهم أحكام وقوانين تنظم حياتهم الاجتماعية، والزنا حرام عندهم، ولهم مشروب يصنعونه من التمر، "وملكهم يهادي ملك الصين". تلك هي الحضارة العربية الأصلية الوافدة من اليمن على أيدي التبابعة وقد استقرت في التبت) ولم تعد معالمها تخفى أمام المؤرخين حتى القرن الرابع الهجري، فسجلوا هذه المعالم من جميع الأوجة: الأصل. اللغة. الثقافة. المأكل. والملبس والمشرب. المسكن. الدين. القانون. نظام الحكم. حتى الأمور التي ربما لا تخطر ببال أحد، وهى من الأهمية بمكان عند علماء الحضارة، مثل المصايف والمشاتي، فقد حرص أبو دلف على ذكرها حين يقول: "لهم مصايف ومشات في مياه ورمال".

وتلك هي بعض مشاهدات رحالة عربي، ومندوب رسمي في بعثة المصاهرة التي تمت بين أسرة مالكة مسلمة من خراسان وبين أسرة مالكة غير مسلمة من الصين، حدثنا عنها على هذا النحو المستفيض. وهو في طريقه إلى الصين، ولم نر فيما كتبه عن مختلف القبائل التي مر بها ونزل فيها أقوى دلالة، وأفصح تعبيراً عن الحضارة مما قاله عن تلك البقية الحميرية التي استقرت على هضبة التبت مجاورة للصين، ثم صارت مع الزمن جزءًا من كيانها العام، إلى وقتنا هذا.

وكان لا بد أن تندمج التبت في الصين يوماً من الأيام، لعدم وجود ما يمنع من ذلك، فقد كان الطريق ممهداً بينهما، و"الباب" يوصل القبائل من هنا إلى هناك، من غير انقطاع، حتى لقد أصبح هذا الباب اسم بلد في الرمل بين هذه الهضبة وتلك، يقيم فيه رجال الحدود الصينية، "ومنه

يستأذن لمن يريد دخول الصين من قبائل الترك وغيرهم" كما يقول أبو دلف، الذي يصف لنا هذا الوادي بما يستحقه من الحسن والنزهة والجمال.

وفي القرن الثامن الهجري نرى الدمشقي العربي (٧٢٧هـ) يتابع الحضارة التبتية مستعيداً ما سبق أن ذكره المسعودي المؤرخ ودعبل الشاعر. ثم يقول بعدهما عن أهل التبت "وهم حضر وبدو، ولغتهم: التركية، وكانوا أولا يسمون من يملكهم[١] "تبع" فصاروا يسمونه "خاقان" وناحيتهم بين الترك والهند والصين" وهم أشبه بالعرب في الألوان والخلق من سائر الأمم.

حضارة الصين:

ترجع الحضارة الصينية إلى أحقاب سحيقة تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ، ويرمزون إليها بقولهم "سان خونغ ووتي" ومعناها ثلاثة ملوك وخمسة سلاطين. أما أول الملوك الثلاثة فهو (صوي تشين) الذي عاش قبل التاريخ وينسبون إليه اكتشاف عنصر النار بنظره إلى النجوم. وعاش الثاني (فوهي) من سنة ٢٨٥٢ق.م. حتى سنة ٢٧٣٨ق.م. وقالوا إنه منظم علم التقويم، وأكبر رجال الثقافة الصينية، فقد شرع نظام الزواج. وابتكر لأهل الصين ما يأكلون وما يشربون، وابتكر لهم آلاتهم الموسيقية، وغرس أشجار التوت، وعلمهم صناعة الحرير، واستأنس الحيوانات الضارية. كما أنه أول من عرف عبادة الإله. وعاش بعده الملك (شين

---

(١) نخبة الدهر

نونغ) فيما بين سنة ٢٧٣٧ق.م. وسنة ٢٧٠٥ق.م. وقالوا إنه اخترع الآلات الزراعية، واستخرج خواص النباتات الطبية.

وبموت (شين نونغ) انتهى عصر الملوك الأولين، فورثه خمسة سلاطين ضعاف وصارت البلاد في عهودهم مطمع الغزاة الطامعين من القبائل الهمجية، فصدهم أول سلاطينهم وهو (خوانغ تي) ومدته من سنة ٢٦٩٧ق.م. إلى سنة ٢٥٩٧ق.م. ويقال إنه حين ضل الطريق وهو في ميدان القتال اخترع الإبرة المغناطيسية فنجا من الهلاك وانتصر على العدو. وفي عهده تعلم أهل الصين غزل الحرير واستكثروا من زراعة التوت وتربية دودة القز.

وتوالى بعده على الترتيب: (جوانغ صو) و(ت يكو) و(ياو) و(شون)، وقد حظي الأخيران من (كونفوشيوس) حكيم الصين بالتقديس؛ فجعلهما مثال الفضيلة والحكمة، واعتبر عصرهما العصر الذهبي للصين.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد أطلق اسم (الصين) على هذه البلاد التي جمع شملها ووحد قبائلها (إينج تسنج) أحد ملوك أسرة تسين (٢٤٦– ٢٠٧ق.م) وفي عهدها أقيم السد الأعظم المعروف بسور الصين العظيم وهو إحدى عجائب الدنيا، دعت إلى إنشائه ظروف العدوان الذي شنته على البلاد قبائل الهون عدة مرات على الحدود، فصدتهم جيوش (شي خوانغ تي).

وقد لمس العالم آثار الحضارة الصينية خلال ثلاثة قرون هي عصر أسرة (تانغ) أي الفترة الواقعة بين سنة ٦١٨ ميلادية وسنة ٩٠٥م. حيث

انتقلت صناعة الورق والبارود – كما يقول مُحَمَّد تواضع في كتابه "الصين والإسلام" – إلى أوربا، عن طريق العرب. ثم إلى شمال إفريقيا وإسبانيا، عقب موقعة (تالاس) التي دارت رحاها بين الصين والعرب سنة ٧٥١م.

وفي الفترة شق أهل الصين عدداً من القنوات والترع في طول البلاد وعرضها، فيسرت بذلك نقل البضائع من فارس والعراق والشام وسائر الأقطار المغربية إلى الصين، فكانت ترسو المراكب والقوافل على ميناء (خانفو) أو (كانتون)، وبها ظهرت أول جالية للتجار العرب قبل غيرهم من التجار، وكان لهم بها قاض يفصل بينهم فيما أشكل عليهم من أمور دينهم وأقاموا مسجداً لا يزال معروفاً بها إلى اليوم ويسمى (خواي تشينغ) ومعناه: الشوق إلى النبي.

من هذا يتبين أن حضارة الصين قد لفتت أنظار العالم إليها، فصارت مطمعاً للدول المجاورة لها، ففي عصر أسرة (يوان) التي تنحصر مدتها فيما بين سنة ١٢٧٧ وسنة ١٣٦٧ ميلادية، قدم (جنكيزخان) من شمال منغوليا، واجتاح بعسكره الولايات الشمالية من بلاد الصين، وفي أيام (قبلاي خان) حفيده، تحولت العاصمة من (نانكين) إلى (كاشغر– بيكين) وقد جعل المغول شرطين لتولي أهل الصين الأصليين الوظائف. هما: معرفة لغة المغول، واعتناق دين الإسلام. لهذا نجد ثماني ولايات من اثنتي عشرة يحكمها ولاة مسلمون.

وفي هذا العهد قدم إلى الصين مغامر من البندقية هو (ماركوبولو) ومعه أبوه وعمه، وقد رحب به (قبلاي خان) وحمله رسالة إلى البابا وزوده

بالتحف والطرائف التي شجعته بعد العودة إلى بلاده على استئناف الرحلة إلى الصين والمقام بها نحو سبعة عشر عاماً، ومن العجيب أن ربان سفينته ودليل رحلته كان رجلاً عربياً اسمه أبو ماجد.

ولن ينسي التاريخ موقف الصين من الأفيون سنة **١٨٣٩** حينما أحرقت منه اثنين وعشرين ألف صندوقا؛ لأن هذا المخدر الفتاك وارد إليها من أوربا، فشبت نار الحرب بين الصين وإنجلترا، وانتهت بإرغام الصين على دفع ثمنه، وفرضت عليها أيضاً غرامة تفوق ثمنه أضعافاً مضاعفة، مع التنازل لإنجلترا عن جزيرة (هونج كونج).

وتحالفت الدول الاستعمارية ضد الصين عندما طردت سنة **١٩٠٠** جميع الأجانب من البلاد التي بدأت تضطرم بالثورة منذ ذلك الحين، ومنذئذ والصين– في خضم السياسة العالمية– أشبه بسفينة نوح، وهي تجري بأهلها في موج كالجبال، وتمضي قدماً نحو أهدافها التي رسمتها لنفسها، حاملة تجارب ناضجة، ووصايا حكيمة لا تزال تنحدر عبر القرون من أيام حكيم الصين (كونفوشيوس).

والآن تبلغ مساحة الصين ثلاثة ملايين ونصف مليون ميلا مربعا ويبلغ العنصر المغولي، وفيهم من المسلمين نحو عشرين مليونياً، إذ يوجد هناك من الأديان: الإسلام والوثنية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية، ونظراً لاتساع رقعتها التي تضم ربع سكان العالم، تعددت فيها اللغات والأديان والعادات والأجناس. وتتكون بلاد الصين حالياً من هضبة منغوليا شمالاً، والسلاسل الجبلية المحيطة بهضبة التبت جنوباً، وتشمل الصين

الأصلية البلاد الواقعة إلى الجنوب من سور الصين (الذي أقامه ملوك الصين سنة ٢٠٠ق.م. تقريباً لحماية حدود البلاد من الشمال الغربي لصد غارات رعاة الخيول أي سكان منغوليا، وتتكون من ثماني عشرة مقاطعة، وتضم الصين الأصلية، نحو ٩٠% من سكان الصين، والباقي في المقاطعات الأربع الواقعة على الحدود، وهي: منشوريا ومنغوليا وسينكيانج والتبت.. وأكثر المسلمين في هاتين الأخيرتين، واللغات السائدة هناك هي: المنغولية والصينية التبتية والتركية.

وتشهر الصين بالأرز والقمح والذرة والشاي والقطن والحرير والفحم والحديد والقصدير والبترول، والدار صيني والعقاقير والدجاج والأوز والفواكه ما عدا بلح النخيل. وتعتبر ثورة الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ نقطة تحول جديد في تاريخ الصين من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويوجد في جنوبي شرقي آسيا نحو ١٥ مليون نسمة من أصل صيني، ولكنهم ينتمون سياسياً إلى دول أخرى.

حملة من اليمن:

يقسم المؤرخون تاريخ اليمن فيما قبل الإسلام إلى ثلاثة عصور:

١- من بدء الخليقة إلى تبع أبي كرب.

٢- من أبي كرب إلى ذي نواس.

٣- من ذي نواس إلى ظهور الإسلام.

وقد ورثت الدولة الحميرية مدنية زاخرة عن سابقتيها سبأ ومعين في

جنوب الجزيرة، وتميزت هذه الدولة بفتوحاتها ومغامرات ملوكها، وانفرد العرب بتسجيل مآثرها. وحدد مؤرخو الإفرنج فترة هذه الدولة فيما بين سنة ١١٥ق.م وسنة ٥٢٥م واشتهر من ملوكها (شمر يرعش) الذي وطئ العجم وفارس وخراسان وخرب مدينة الصغد وراء جيحون. وبنى المدينة التي عرفت باسمه فيما بعد، ثم أصابها التحريف وهي (سمرقند)، وكانت وفاته سنة ٣٠٠م.

ويقال إنه كان يطلق عليه (ذو المغازي) لأنه في إحدى الروايات سار بجيش عدته ٣٠٠ ألف مقاتلا غزا بهم العراق وخراسان واليمن والحيرة وفارس حتى بلغ بهم أرض الصين. وكان لملك الصين في ذلك العهد– كما يقول النويري– وزير شديد البأس عالي الهمة، اتفق مع الملك على خداع ملك اليمن القادم لغزو بلاده، وتظاهر له بالشكوى من مولاه.

وأظهر استعداده لخدمة جيش اليمن، وإرشاد الغزاة إلى مسالك الصين، ففرحوا به، وساروا خلفه، فما لبثوا أن أدركوا أنهم وقعوا في كمين أعده لهم وزير الصين إذ انتهى بهم إلى أرض سبخة أشبه بالفلوت السحيقة، فأجهدهم السير، واستبد بهم العطش حتى ماتوا، وبهذا نجت بلاد الصين من غائلة الغزو.

وفي رواية أخرى أن الملك أسعد أبا كرب (٣٨٥– ٤٢٠م) قد غزا أذربيجان وهزم الترك، وهادنه ملوك الهند، وبعث ولديه للغزو. فذهب (حسان) إلى الصغد، ومضى (يعفر) إلى الروم، وكان حسان قد استمر في زحفه حتى وصل إلى بلاد الصين. وهناك وافاه أخوه فرجعا منها بالغنائم

والأسرى، كما أن يعفر قد ذهب إلى غزو القسطنطينية فعاد منها بالجزية ثم حاصر روما، ورجع إلى اليمن تاركاً بالصين قوماً من التبابعة (الحميريين) الذين استوطنوها وتناسلوا فيها.

وعند المسعودي أن كليكرب بن تبع المعروف بالأقرن هو الذي تقدم زاحفاً نحو خراسان والصغد والصين، كما أن البكري وهو[1] من أهل القرن الرابع الهجري يحدثنا عن جزيرة "أدال" في الخليج العربي "وفيها بنو من وكثير من العرب".

الصين بين العرب والعجم:

تملك النعمان بن المنذر بلاد الحيرة فيما بين سنة ٥٨٥ وسنة ٦١٣م، وفي بلاطه كانت تلتقى وفود العرب والصين والروم والهند، وقد تحدث ابن عبد ربه الأندلسي في "العقد الفريد" عن قدوم النعمان على كسرى ملك العجم وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا بلادهم وملوكهم، وجاء دور النعمان فذكر العرب وجعلهم أفضل الأمم، غير أن كسري أخذته عزة الملك، فتحدث عن الروم والهنود وعرج على الصين فذكر "اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آله الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكاً يجمعها"، ثم ذكر الترك والخزر وانتهى إلى العرب فحط من قدرهم وأساء إليهم، فما كان من النعمان إلا أن كبح جماح غضبه ورد على كسرى وفند أقواله، وأشاد بخصال العرب التي فضلوا بها غيرهم من الأمم، ولاسيما حسن الوجوه، فهم علي قوله: خير

---

[1] "الممالك والمسالك".

من الهند المنحرفة، والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة.

أليس في هذه المجالس ما يدل على أن العرب كانوا على إلمام بالشعوب النائية عنهم ولاسيما الصين في عصر ما قبل الإسلام؟! وسواء كان هذا الإلمام عن طريق المشاهدة أم الرواية، فإن العرب لم يكونوا بمعزل عن العالم، بل توفرت لديهم فرص الالتقاء بوفود هذه الشعوب، فتعارفوا ولم يعد من العسير عليهم أن يميزوا بين الهندي والصيني

ولا شك أن موقعة القادسية سنة ٦٣٦م كانت بداية النهاية لدولة الساسانيين، كما أن عروش الأكاسرة قد تقوضت إلى الأبد على إثر موقعة نهاوند سنة ٦٤٢م. وكان يزدجر آخر عنقود في دولة بني ساسان، ففر إلى الصين مستنجداً بإمبراطورها (تانغ تائي جونغ) الذي اعتذر له، وقد أحس بالنفوذ العربي في زحفه نحو الشرق كأنه الطوفان الجارف.

قتيبة.. في الصين:

وفي سنة ٩٦هـ (٧١٥م) وباسم دولة بني مروان، وبأمر من الوليد بن عبد الملك، تحرك القائد المظفر قتيبة بن مسلم الباهلي، فتقدم على رأس جيش كثيف من العرب إلى خراسان وما وراء النهر، ثم استراح بمرو، وأخذ يشعل حماسه جنوده.. حتى زحف بهم إلى بيكند، ثم كاشغر، حيث فتح بلاد الصين من الغرب، فأخذت تتساقط بين يدي كتائبه كأوراق الخريف المدن الصينية: الصغد، رامتين، بخاري، واردن، كش. فلما دخل سمرقند، صلى لله شاكراً ما فتح عليه، وأمر بإقامة أول مسجد بها، وحطم أصنامها، وعلى الرغم من انقضاض بخارى عليه مرة بعد مرة، إلا أنه عزز حامية بها

وأنشأ بها جامع قتيبة، وسرعان ما ترجم القرآن، وانتشر الإسلام في أرجاء التركستان الصينية ثم الشمال الغربي للصين.

ومضى قتيبة بجحافل جيشه حتى فتح خوقند، فقد سلمت له بلا مقامة، ودخل بعدها كاشغر، واستنجد التتار بأهل الشمال من تركستان الصينية ولكن حصونهم المنيعة في كاشغر ويارقند وختن قد سقطت تباعاً تحت معاول العرب الفاتحين حتى وصلوا إلى (طرفات) متوغلين في أرجاء الصين.

وأدرك ملك الصين مقدار الخطر المحدق بعرشه من جراء هذا الزحف الجارف، فأرسل إلى قتيبة أن ابعث إلي رجلاً منكم يخبرني عنكم.. فاختار عشرة رجال أو يزيدون، وعلى رأسهم هبيرة بن مشمرج الكلابي.. وقد حرص قتيبة على أن يكون أعضاء الوفد أحسن من في المعسكر رجاحة عقل وبسطة جسم وفصاحة لسان وشدة بأس، وأمدهم بعدة وافرة من السلاح واللباس والعطر وأركبهم أحسن الجياد عنده، فلما تأهبوا للوفادة علي ملك الصين؟ قال: أصلحك الله، قل ما شئت أقله. قال قتيبة: سيروا على بركة الله، وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم على ملك الصين، فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم.

ومثل وفد قتيبة ملك الصين، وهم في ثياب بيضاء، تحتها الغلائل، والطيب يفوح منها، وفي أرجلهم نعال من تحتها الغلائل، والطيب يفوح منها، وفي أرجلهم نعال من جلود، ودخلوا على الملك وحوله عظماء

البلاد، فجلسوا، ولما لم يوجه إليهم الملك كلاماً نهضوا وانصرفوا، وانفرد الملك بمن حوله وسألهم: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوماً ما هم إلا نساء، ما بقي منا أحد حين رآهم إلا وجحد رائحتهم.

فلما كان الغد، استدعاهم الملك فلبسوا الوشي وعمائم الخز، ثم دخلوا عليه وخرجوا، لم ينبسوا ببنت شفة، وسأل الملك أصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى.

وفي اليوم الثالث أرسل الملك إليهم فجاءوا في السلاح، وقد لبسوا البيض والمغافر، وتقلدوا السيوف، واختصروا الرماح، وتنكبوا القسي واعتلوا صهوات الخيل المطهمة، وأقبلوا كالجبال حتى دنوا فركزوا رماحهم وشمروا، وعيونهم تقدح بالشرر كأنها عيون الأفاعي، ولم يكادوا يطئون الباب حتى داخل الملك وأصحابه فزع وهلع، وقذف الله الرعب في قلبه.. وأمرهم بالانصراف.. فانصرفوا وهم تطاردون بالحيل.. والتفت الملك إلى رجاله يسألهم الرأي فيما رأوا، فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط.

وانتهى الرأي إلى استدعاء أميرهم وكبيرهم، فجاء هبيرة، فقال له الملك حين دخل عليه: لقد رأيتم ملكي العظيم، وعلمتم أنه ليس أحد يمكنكم مني وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزله البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم. قال: سل. فقال: لم صنعتم ما صنعتم من الزى في اليوم الأول والثاني والثالث؟.. قال: أما زينا الأول فلباسنا في أهلينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا.

فقال الملك: ما أحسن ما دبرتم.. فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أهابه.. وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويلهمه. فقال له هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك، وآخرها في منابت الزيتون؟! (.. إحدى مدن الصين وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته).. وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، وقد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية.

وارتاع الملك من هذه اللهجة القوية، فرجع عن التهديد والوعيد، وفكر ملياً ثم قال: نحن نخرجه من يمينه، ونبعث تراب أرضنا فيطؤه، وبعض أبنائنا فيختمهم ونعطيه الجزية التي يرضاها.

وأمر فجئ بالتحف والطرف فقدمها إلى هبيرة، فلان جانبه وجنح إلى السلم، وكتب إلى قتيبة بما جرى، وأنه قبل عروض الجانب الصيني ورضي له أن يتحلل من اليمين التي أقسمها، وفي هذا يقول سواد بن عبد الملك السلولي يخاطب قتيبة، ويشجعه على ما فعل:

لا عيب في الوفد الذين بعثهم

للصين أن سلكوا طريق المنهج

كسروا الجفون على القذى خوف

حاشا الكريم (هبيرة بن مشمرج)

أدي رسالتك التي استدعيته

فـأتاك مـن حنـث اليمـين بمخـرج

لم يـرض غـير الخـتم في أعنـاقهم

ورهـائن دفعـت بحمـل سمـرج

وأوفد قتيبة رجله الشجاع هبيرة إلى الوليد بن عبد الملك فمات في الطريق ولم يصل، فرثاه سواد بأبيات منها:

لله در (هبـيرة بـن مشـمرج) مـاذا تضـمن مـن نـدى وجمـال

وبويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة، وهو الذي أهلك القائد الشاب مُحَمَّد بن القاسم فاتح السند ونكل به أيما نكال، ثم قلب لقتيبة ظهر المجن فعزله واستأمر على جيشه وكيعاً، فتقاتلا حتى جرح قتيبة، وقتل ومعه الكثير من أهل بيته، فانشقت عصا الفاتحين الغزاة، وضعفت فتوح العرب، ووهنت عزائمهم عن المضي نحو المشرق الأقصى، وانطفأت جذوة حماسة الجنود، وانحسرت هذه الموجة عن بلاد الصين.. ولكن آثارها لم تزل منذئذ باقية..

"تالاس":

على الرغم من مقتل البطل الفاتح قتيبة بن مسلم، ظلت الولايات التي فتحها في قبضة العرب، فوطدوا بها حكمهم، مما شجع التتار فيما بعد على التوغل في قلب الصين. وعندما طمع أهل الصين في استرداد إحدى الولايات وهي شاش، استنجد أحد أمراء الصين- بعد مصرع والده- بأبي مسلم الخراساني، فأرسل زياد بن صالح الذي أخمد ثورة شريك بن المهدي، وهناك في معركة (تالاس) الفاصلة سنة ٧٥١م، لقي العرب من الظفر على

الصين، ما جعلهم في هذه البلاد أقوى نفوذاً وأشد مراساً من ذي قبل.

وقد كان من ثمار هذه الموقعة المشهورة، والتي ذكرها الثعالبي في "لطائف المعارف"– نقلا ورواية عن الجويني في "المسالك والممالك"– أن العرب قد أسروا من الصين عدداً كبيراً. كان من بينهم عمال مهرة في صناعة الورق، فتعلموها منهم، وما لبثوا أن نشروا هذه الصناعة وأذاعوها في سائر البلاد العربية.

وتلت هذه الموقعة فترات انقضاض، حاول فيها الولاة الأتراك أن يخرجوا من قبضة العرب، واستعانوا بأباطرة الصين. ولكن هؤلاء كانوا من الحكمة والسياسة بحيث خافوا على عروشهم من سطوة العرب، ولاسيما بعد أن جربوا حظهم في موقعة تالاس، وعلى العكس حفظ العرب لأباطرة الصين هذا الجميل، فلما اجتاحت الثورات الداخلية بلادهم خف العرب المواطنون لنجدتهم، وردوا للإمبراطور (سو – تسنج **Su-Tsung**) مكانته، وارتدت زوبعة التمرد والعصيان على أعقابها.. وظلت راية أسرة تانج الحاكمة خفاقة حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، بفضل النجدة العربية التي بعث بها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة ٧٥٧م وكان قوامها عشرين ألف مقاتلا، حتى لقد أشاد المؤرخ الصيني (تانج شو) في تاريخه بهذه النجدة العربية التي قضت نهائياً على الفتن الداخلية سنة ٧٥٧م، وأشار إليها أيضاً (بريتشنايدر) في كتابه المعروف عن أقدم صلات الصين بالعرب.. فما كان من الإمبراطور إلا أن أجزل الثواب للعرب، ومنحهم الاستقلال في الولايات التي ارتضوها، نظراً لتزايد نسبتهم العددية فيها، وما لبث العرب أن ازدادوا في الصين نفوذاً، وإلى قلوب الأباطرة محبه

وقرباً؛ فقد طابت لهم الإقامة في (كنتون).. وانضموا إلى المستوطنين بها من تجار العرب، وتزوجوا مثلهم من نساء الصين، وتناسلوا، فكان منهم جيل جديد أطول قامة وأشد قوة، وأقرب إلى السمرة منه إلى الصفرة.

الفصل الثاني

الإسلام والصين

من الأندلس إلى الصين

تتفق مصادر التاريخ الإسلامي كلها على انتشار الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، بحيث لا نجد صعوبة في معرفة بداية ظهور هذا الدين الجديد في بلاد كانت خاضعة للأكاسرة أو القياصرة، ومن ثمة انتقل إلى ما يليها من البلاد، فصار هذا الأمر حقيقة ثابتة لا تقبل التزييف أو التحريف، لهذا لا سبيل إلى إنكار أن القرن الأول من الهجرة لم يكد ينقضي حتى بسط الإسلام جناحيه أحدهما إلى الشرق فبلغ الصين، والآخر إلى الغرب فبلغ الأندلس، وذلك في عصر بني أمية، وفي خلافة الوليد بن عبد الله وسليمان بن عبد الملك من بعده؛ ففتح طارق بن زياد الأندلس سنة ٧١١م. ودخل قتيبة بن مسلم بلاد الصين سنة ٧١٥م وذلك بعد أن استقر الإسلام في البلاد التي دون كل منهما تدريجياً.

وعلى الرغم من هذا التوافق الزمني، فإن بدء دخول الإسلام إلى الصين لا يزال تكتنفه طبقات كثيفة من الغموض، مما أدى إلى خلافات بين المؤرخين، على عكس إجماعهم – فيما يتعلق بفتح الأندلس – على حقائق موحدة.. ثم إن الأمر بالنسبة للصين قد اتسم بالأساطير على نحو تكاد معه حقائق التاريخ أن تفلت من بين أصابع المدقق المحقق.. ويرجع

ذلك إلى ندرة مصادرنا عن هذا الجانب بالذات. مع وجود مراجع صينية تؤرخ لهذه الفترة، وتخالف في خطوطها الرئيسية ما هو موجود بين أيدينا من المراجع.

أول مسجد في الصين:

ويؤكد الكثير من المؤرخين أن أول مسجد أقيم خارج الجزيرة العربية، هو المسجد الذي بناه المسلمون في الصين. متى؟ وأين؟ وعلى يد من؟ هذا ما نود أن نحاول الجواب عنه، بشق طريق وسط الأساطير والحقائق، حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحق.

قيل إن سعد بن أبي وقاص قدم إلى الصين ومعه ثلاثة من الصحابة ومعهم أربعون رجلاً، بدعوة من أحد أباطرة أسرة (سوي). وأطلق الصينيون على سعد بن أبي وقاص اسم "وقاص بابا" أو "بابا الأول"، كما أطلقوا على الثلاثة الآخرين بابا الثاني، وبابا الثالث، وبابا الرابع.. فلما ألقوا عصا التسيار بمدينة (كانتون) شيدوا جامعاً أطلقوا عليه "جامع الذكرى" وذلك في السنوات الأولى من حكم الإمبراطور (كاتشو) الذي يقع فيما بين سنة ٦١٨ وسنة ٦٢٧م. وأشرف على بنائه وزير صيني من أسرة (تانج **Tang**) وكان يحب النبي عليه السلام فسماه جامع الذكرى أي ذكرى النبي مُحَمَّد.

وقد أحيطت هذه الرواية بنسيج أسطوري شفاف، إذ أضيف إليها أن الملك الصيني (وين تي) رأي مناماً، فبعث علي أثره يدعو مُحَمَّداً عليه السلام لزيارة الصين، فاعتذر له النبي وبعث نيابة عنه هؤلاء الرجال وعلى رأسهم

خاله سعد ابن أبي وقاص.. الذي حمل معه صورة النبي سراً، وقدمها للملك فسر بها غاية السرور، وعلقها على أحد جدران القصر ليسجد لها، فمنعه من ذلك ابن أبي وقاص، فسأله عن ذلك فقال: إن النبي منعنا من عبادة الصور والتماثيل، وأنه لا إله إلا الله، فأمر الملك ببناء مسجد في (كانتون) وجعل من بعض أروقته له سكناً، وسماه جامع (خواي شينغ) أي الشوق إلى النبي، وقيل إنه لا يزال قائماً إلى يومنا هذا. وأقامت هذه الجماعة التي سماها أهل الصين (هوي– هوي **Hui Hui**)[1] في منازل فاخرة من طراز جديد بكانتون. وكانت طاعتهم لأميرهم المسلم مضرب الأمثال. وقد تكون هذه التسمية التي أطلقها الصينيون على هذه الجماعة المسلمة تحريفاً للضمير (هو) مكرراً، كإشارة إلى عقيدة التوحيد التي هي جوهر الإسلام، حسب نص سورة الإخلاص "قل "هو" الله أحد"، وعلى كل حال فهذه الكلمة الصينية تبدو وكأنها ترجمة لكلمة "المسلمين".

ويؤكد المؤرخ الصيني صاحب كتاب "أصل المسلمين في الصين" وعنوانه ينطق بالصينية هكذا: **Hui- Hui gnan lui** أن الإسلام وصل إلى الصين سنة ٦٢٨م عندما قدم العرب من قبل النبي رداً على البعثة الإسلامية على رأسها القيس والأديس والوقاص، مات الأول والثاني في الطريق، أما الوقاص فقد كتب له البقاء حتى لقي إمبراطور الصين، وأخبره بالقرآن.. ثم عاد إلى النبي ثلاث مرات عن طريق البحر: المرة الأولى كانت من أجل الكتب الدينية، والثانية لإحضار نسخة من القرآن واستشارة النبي في شئون نشر الدعوة بالصين. فقال له النبي: خذ معك ما نزل من

---

(1) **Deveria; Mission d'Ollon.**

الآيات، وأما الآيات التي سأتلقاها من الوحي، فسأبعث بها إليك عند نزولها، وفي المرة الثالثة جاء يزور النبي في مرضه، ثم عاد بعدها إلى الصين، ومعه نسخة كاملة من القرآن الكريم، ثم وافاه القدر المحتوم في (كانتون) حيث مات ودفن، فأطلق اسمه على مسجدها الأشهر.

واستناداً إلى المصادر الموثوق بصحتها، نستطيع بكل اطمئنان أن ننفي نفياً قاطعاً وصول سعد إلى الصين، وبهذا تتبدد جميع الخيوط الواهية التي نسجتها الخرافات حول سفره إلى الصين سواء كان مرة أم عدة مرات. وإذا كان تاريخ الهجرة يوافق سنة ٦٢٢م، فهل يصدق عاقل أن الإسلام وصل إلى الصين بعد ست سنوات، حيث كان النبي مشغولاً بشئون الدعوة بالمدينة، وقد هاجر إليها مستنصراً بأهلها، وجمع كلمة المهاجرين والأنصار، استعداداً للجهاد؟!

حقاً.. لقد بعث النبي رسله إلى الروم والحبشة ومصر، ولكن ليس لدينا ما يثبت أنه أرسل خاله أو عمه أو ابن عمه داعية للإسلام في الصين بالذات. هذا وقد عثر أسقف روسي يدعي (بالاديوس **Palladius**) سنة ١٨٧٨ بيكين علي مرسوم صيني مترجم عن أصل عربي نشره العلامة الإنجليزي (مورجان) سنة ١٨٨٢ في مجلة (ذي فونكس)، وفيه أن (ابن حمزة) عم النبي قدم الصين في السنة السادسة من حكم الإمبراطور (تسنج كوان) بما يوافق سنة ٦٣٢م، ومعه نسخة من القرآن، وفي صحبته ثلاثة آلاف جندي، وقد سر الإمبراطور بمقدمة لحسن خلقه وتقواه، وأبقاه مع جيشه في العاصمة (جانج آن)، وبنى لهم جامعاً بها، ولما اتسع نطاق الدعوة أمر ببناء مسجدين آخرين، أحدهما في (نانكين) والآخر في

(كانتون).. ثم أخذ ابن حمزة ينظم مع أصحابه وسائل الدعاية للدين الإسلامي في الولايات، وجعل منهم أئمة وخطباء ومؤذنين، كما وضع للمسلمين تشريعاً من أربعة عشر قراراً، لتنظيم معاملاتهم.

وما لبث فوج آخر من المهاجرين عن طريق البحر أن قدموا من بلاد العرب، واستوطنوا إقليم (ينان)، فأنشئ جامع (كانتون) سنة ١٢٤هـ – سنة ٧٤٢م، ثم جامع مقبرة العطر الشذى، وسنرى في كتابات العرب عن هذه الفترة، كثرة الوافدين علي الصين، وتزايد المساجد تبعاً لذلك، ولاسيما فيما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة، بما يلفت الأنظار، ويدعو إلى الدهشة.

ولعل المبالغة في الأرقام التي وضعها الرواة عن هذه الحشود الوافدة، تكفي سبباً لدحض هذه التصورات، التي قد يكون الداعي إليها، رغبة المسلمين الأولين من الصينيين في نيل شرف السبق إلى الإسلام على أيدي كبار الصحابة ولاسيما أقارب النبي، وربما يكون الخلط بين الأسماء ناجماً عن تحريف اسم تاجر عربي اسمه (الوقاص) إلى (سعد بن أبي وقاص).

ويكاد ينعقد اجتماع مؤرخي الصين أنفسهم على أن بلادهم عرفت الإسلام سنة ٦٥١م أي سنة ٣٠هـ في الشهر الثامن من السنة الثانية لحكم (تاوتسونج) أحد ملوك أسرة (تانج)، بينما تحكي روايات أخرى أن أول ظهور الإسلام كان فيما بين سنتي ٦١٨ و ٦٢٦م أي مع تاريخ الهجرة أو ما حول ذلك بسنتين.

أما الباحث الأمريكي (ماسون **Masn**)[1] فيرى أن أول ظهور الإسلام بالصين كان سنة ٦٥١م، وربما قبل ذلك، ويؤيده (فوتونج بيان) المؤرخ الصيني المسلم وجمهره كبيرة من مؤرخي الصين.

ويقول المؤرخ الصيني (تشين بوان) إن أول وفد عربي قدم إلى الصين كان في عهد الخليفة عثمان، وهو الذي بعث وفداً من المسلمين لمرافقة سفير الصين لدى عودته إلى بلاده، فلقي هذا الوفد من الإمبراطور كل تكريم.

ويؤكد المؤرخون الصينيون المعاصرون أن (مسجد الذكرى) الذي يقال إن ابن أبي وقاص قد أقامه في (كانتون ويسميه أهل الصين (واي شن تزي).. لا يزال موجوداً.. وأن هناك شاهداً على قبر سعد خارج المدينة، وعليه اسمه مكتوب بخط واضح وتاريخ بناء المسجد سنة ٧٤١م. وأن إمام المسجد الذي كان يعمل به فما بعد يدعي بدر الدين السوكاكي (٩٥٢هـ = ١٥٤٥م).

هذا وقد حدثني شخصياً الدكتور مصطفى الأمير الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية– بعد عودته من الصين حيث كان يعمل بجامعاتها أستاذاً للدراسات المصرية القديمة – أن أول مسجد أسس خارج الجزيرة العربية كان مسجد (بيكين. وذلك سنة ٦٢٠م، وأن على مدخله لوحة تذكارية، مكتوب عليها باللغة العربية أن مؤسسه (ابن وقاص).

وورد في بعض الكتب الصينية أن الإسلام قد بدأ ينتشر في أرجاء

---

[1] البحث عن دخول الإسلام في الصين.

الصين من ثلاثة مراكز رئيسية هي: (كانتون) و(يانج شو و جوان شو)[١] حتى لقد بلغ عدد الأسر المسلمة ثلاثين ألفاً في مدينة واحدة هي (قنجنفو Kanjanfu)، وكان بها مساجد أربعة، بخلاف المساجد التسعين المنتشرة في سائر الولايات، والتي أنشأتها حكومة الصين على نفقتها.

الأنبياء.. في الصين:

ومما ذكره المسعودي في "مروج الذهب" أن رجلا يدعى (ابن وهبان)[٢] من بني هبار الأسود خرج من البصرة إلى (سيراف)، واجتاز ممالك الهند حتى بلغ مشارف الصين، ثم وصل إلى ميناء (خاتفو) أو (كانتون، والتمس ابن وهبان مقابلة الملك، متشفعاً بقرابة من بيت النبوة، فلقيه الملك أحسن لقاء، وأكرم مثواه طول مدة إقامته بالصين يعبدون النار ويسجدون للشمس والقمر، وكأنما عز عليه أن يرى هذه الوثنية، فدار بينه وبين الملك حوار نورده فيما يلي موجزاً لما فيه من طرافة.

العربي: لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأنفسها وأوسعها ريعاً وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالا وأنداها صوتاً.

الملك: فما منزله سائر الملوك عندكم؟

العربي: ما لي بهم علم.

الملك: إنا نعد الملوك خمسة، فأوسعهم ملكاً الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملكاً، وبعده ملكنا

[١] العلاقات بين العرب والصين.

[٢] واسمه في بعض الكتب: ابن وهب القرشي وأن زيارته للصين هذه كانت سنة ٢٥٦هـ.

هذا، ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا، ولا أضبط لملكة من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعده ملك السباع، وهو بعده ملك الترك الذي يلينا، وهم سباع الإنس، من بعده ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضاً لأن أصلها منهم، ومن بعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله، ولا أحسن وجوهاً منهم، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم. وهنا أمر الملك بسفط فيه كتب، وأومأ إلى الترجمان أن يطلع ابن وهبان على كتاب منها به صور، ثم سأله: أتعرف صاحبك (أي النبي مُحَّمداً) إن رأيته؟

العربي: وكيف لي برؤيته وهو عند الله عز وجل؟

الملك: لم أرد هذا، وإنما أردت صورته؟

العربي: أجل.

ونظر ابن وهبان إلى الصور التي يحتويها السفط ثم قال: هذا نوح عليه السلام في السفينة بمن معه، لما أمره الله عز وجل، فعم الماء الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه.

الملك: أما نوح فصدقت في تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض، ولم يصل إلى أرضنا، إن كان خبركم صحيحاً فعن هذه القطعة، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم، ولا نقل إلينا

أسلافنا ما وصفتم، أما ما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها، فمن الكوائن العظام التي تفزع النفوس إلى حفظه، وتتداوله الأمم ناقلة له،

العربي: (بعد أن رأى صورة أخرى) وهذا موسى عليه السلام وبنو إسرائيل.

الملك: نعم، على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه.

العربي: (بعد أن اطلع على صورة ثالثة وهذا عيسي بن مريم عليه السلام، وهو على حماره، والحواريون معه).

الملك: لقد كان قليل المدة.

العربي: وهذا نبينا وسيدنا وابن عمنا مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ (وقد صوروه وهو على جمل، وأصحابه من حوله، في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل، وفي أوساطهم حبال، علقوا فيها المساويك..

الملك: صدقت، لقد ملك قومه أجل الممالك، إلا أنه لم يتعاين من الملك شيئاً، إنما عاينه من بعده، ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه.

وسأل الملك بعد ذلك عن الخلفاء وأزيائهم، ثم عن الشرائع، وعن عمر الدنيا، فأجابه فرد عليه الملك بأن النبي لم يقل هذا، ولم تختلف في ذلك الأنبياء، ثم سأله عن السبب في حضوره إلى الصين.

العربي: بما حدث على (البصرة ووقوعي إلى (سيراف)، ونزعت بي همتي إلى ملكك أيها الملك، وكثرة جنودك، فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة

ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إلى بلادي، وملك ابن عمي، ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك، وسعه هذه البلاد، وشيمك أيها الملك المحمود، وسأقول بكل قول حسن، وأثني بكل جميل.

وأعجب الملك بهذا الجواب البارع، وأمر بجهازه إلى (خانفو)، وأوصى به صاحب الولاية، وظل يرفل في ثياب النعمة حتى خرج من الصين عائداً إلى بلاده

ومن هذا يتبين أن ابن وهبان قد رحل إلى الصين من العراق في عصر الدولة العباسية، يحدوه إلى الرحلة داعي النزهة والفرجة، في بلاد ذاع صيتها وشاع ذكرها على ألسنة الذاهبين الآيبين، فتاقت نفسه إلى رؤيتها "ما رأى كمن سمعا".

ويتبين لنا أيضاً أن فن التصوير في الصين قد وجد مادة خصبة من حياة الأنبياء والمرسلين ومن بينهم نبي العرب، فاحتلت تصاويرهم قصور الملوك في الصين، كما شاعت هذه التصاوير في البلاط الفارسي، وعليها مسحة من فنون الصين، وسنرى فيما بعد، عناية المؤرخين العرب بهذه الحصيصة الصينية وماذا قالوا عنها في مؤلفاتهم.

من كونفوشيوس إلى مُحَمَّد (ﷺ):

عرفت بلاد الصين منذ القدم بالعجائب والأساطير، وسيطرت على عقول أهلها عقيدة غامضة هي عبادة الأرواح الخفية المستترة في مظاهر الكون أرضه وسمائه، كما تميز الشعب الصيني منذ آلاف السنين بتقديس الآباء والأجداد، وتميزت عندهم عقيدة العامة عن عقيدة الخاصة، وبلغ

احترامهم لملوكهم حد القداسة، والتنزيه عن الرذائل، فعم السلام وساد العدل، وما لبثت أن تغيرت أحوال الحاكمين والمحكومين، فظهرت في القرن السادس قبل الميلاد فلسفتان تهدف كل منهما إلي الكشف عن سبيل للإصلاح الاجتماعي، فاتجه (لاوتسه) إلى الزهد في الدنيا واحتقار شأنها، بينما يرى (كونفوشيوس) أن تنظيم المجتمع هو أساس كل إصلاح منشود.

وانتصرت فلسفة كونفوشيوس، وسادت تعاليمه ومبادئه التي استمد جذورها من أعماق التراث الصيني ومن طبيعة العصر الذي عاش فيه، وكان سلوكه الشخصي وكبحه لجماح نفسه من أسباب انتشار فلسفته بسرعة، فوصل هو إلى المناصب الرفيعة.. حتى لقد صار حاكماً عاماً على إحدى المدن الصينية، فانقطع بها دابر الإجرام، وكلفه الإمبراطور بتطبيق ذلك على سائر الولايات ومكنه من ذلك بأن جعله وزيراً، وشهدت الصين على يديه تقدماً ملحوظاً في المجالين الأخلاقي والعمراني على السواء.

حكيم هذه شخصيته، وهذه مبادؤه وآثاره جدير بعد موته أن يحظى بالتقديس من أهل الصين منذ القرن الرابع قبل لميلاد وأن تتعمق فلسفته في حياة الأجيال المتعاقبة عبر القرون، وأن تكون ترجمتها العملية أن السلام هو خير وسيلة للإصلاح الاجتماعي.

ترى هل عمل المسلمون الواردون على الصين بقول نبيهم الكريم: "الإسلام يجب ما قبله"؟.. ثم ماذا كان موقفهم من الكونفوشيوسية وهم بصدد نشر تعاليم دين جديد طارئ على أرض تسودها الخرافات؟ وبمعنى آخر: هل قام صراع بين الديانتين على أرض الصين؟ وماذا كانت النتيجة؟

والجواب على ذلك مستمد من حقيقة العلاقات الوثيقة التي توثقت عراها بين الصين والعرب قبل الإسلام، فقد رأينا كيف كانت التجارة البرية والبحرية أول عوامل الربط بين الأمتين، ومن طبيعة التاجر إيثار السلام، والتماس الطريق إليه، صوناً للأرواح من الهلاك، وحماية للأموال من الضياع.

فإذا كان هذا شأن التاجر العربي الذي يتعامل مع أي بلد أجنبي فإنه أحوج إلى هذه المعاملة مع الصين بعد اعتناق دين الإسلام، لهذا نجد ظاهرة انتشار هذا الدين في هذه البلاد تأخذ طابعاً خاصاً هي أنه لم ينتشر باستعمال السيف، وإنما بالتعايش السلمي، من حيث العقيدة والسلوك، وبهذا شاع وذاع، والأدلة التاريخية على ذلك شاهدة.

فقد ذكر كل من (برومهال) و(فاسيليف) تفاصيل السياسة التي ابتاعها المسلمون في الصين، حتى لا يظهر دينهم متعارضاً مع دين الدولة، فنجحوا – كما يقول (أرنولد) – في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية كاليهودية والمسيحية، بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنهم الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كونفوشيوس، مع فارق واحد هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم في الزواج والجنازات وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام، وتحريم الخنزير والخمر والدخان تمجد كتب كونفوشيوس وغيرها من الكتب الداعية إلى الفضائل، وتشير إلى ما بين تعاليم الإسلام وفلسفات الصين من تقارب وتشابه.

كان المسلمون حريصين على تجنب العنف في بث دعوتهم، حريصين على أن تكون تصرفاتهم الاجتماعية خير دعاية للدين الذي جاءوا به، فلم

يتظاهروا بما يخالف المألوف، حتى لا يتأذى منهم جيرانهم – في الأحياء من القرى والمدن – الذين على غير دينهم، ولم يشعلوا نيران التعصب التي من شأنها خلق المشاكل والفتن والمذابح الأهلية، بل اندمجوا في المجتمع الصيني وارتدوا الثياب القومية، وأطالوا ضفائر شعورهم، وبنوا مساجدهم على النمط الصيني، ولم يلبسوا عمائمهم إلا عند الصلاة بالمسجد، إيماناً منهم بأن الله لا ينظر إلى صورهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم، وأن التقوى في القلب ولا تظهر حقيقتها إلا في الأعمال. "وإنما الأعمال بالنيات". وفضلا عن ذلك كانوا يسجدون أمام لوحة الإمبراطور الموجودة في كل مسجد، كما تقضي بذلك الأوامر، وكان كبار موظفي الدولة من المسلمين لا يتورعون عن إقامة الطقوس الوثنية المفروضة عليهم أيام العطلة والأعياد كمظهر ولاء يجب عليهم أداؤه نحو الإمبراطور، وما كان المسلم الصيني ليجد أي غضاضة في الظهور بملابسة الوطنية وهو يصلي لكونفوشيوس في المعابد الوثنية.

وباتباع هذه السياسة الحكيمة استطاع المسلمون أن يعيشوا في وئام وسلام في ظل الوثنية الصينية، وأغلب الظن أن وصايا كونفوشيوس الاجتماعية كانت مهد السلام الذي تربت الدعوة الإسلامية فيه، فنمت وترعرعت، وتمكن المؤمنون بها أن يتجنبوا كل تحرش واحتكاك بمواطنيهم المخالفين لهم، فقلما اندلعت ألسنة الفتنة الداخلية، وقلما كان للمسلمين فيها باع أو ذراع. وعلى هذا النهج سارت الدعوة الإسلامية في الصين عبر القرون والأجيال، وبلغت من النجاح إلى الحد الذي جعل الكاتب الروسي فاسيليف في القرن الماضي يتنبأ بأن الدين الإسلامي يوشك أن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية وأن يقلب تبعاً لذلك جميع

الأوضاع السياسية في الشرق رأساً على عقب.

ويحدثنا المؤرخون أن أباطرة الصين كانوا يعطفون على المسلمين عطف الآباء على الأبناء، ويثقون في ولائهم بما لا يوصف، فبادلوهم حباً بحب وتقديراً بتقدير، وطالما دبر الحاقدون مؤامرات ضد المسلمين لدى البلاط الصيني فباءت جميعها بالفشل، وما زادت الأباطرة إلا تقريباً للمسلمين ووضعهم في أجل المناصب وأهمها في الدولة مدنية وعسكرية، وبرهنوا على أنهم مواطنون صالحون في كافة أعمالهم الأهلية والحكومية، فقد استطاعوا التكيف بالبيئة الصينية، وكانوا وما عليهم. وفضلا عن هذا، حظي المسلمون في الصين بامتيازات لم يحظ بها غيرهم من الأجانب وإن كانوا لا يعتبرون عن الصين أجانب – فأعفاهم الأباطرة من الضرائب، بالرغم من كثرة عددهم، وتمتعوا بكامل الحرية الدينية، وأغدقوا عليهم الأموال، ومنحوهم الأراضي الشاسعة ليزرعوا ما يشاءون، ويعمروها كما يشاءون.

وكثيراً ما كانت المجاعات تجتاح بلاد الصين، فيضطر الآباء إلى بيع أولادهم في الأسواق، فكان المسلمون أول من يسارع إلى شرائهم بالآلاف. فيربونهم على الإسلام منذ نعومة أظفارهم، ويعاملونهم معاملة الأبناء، حتى إذا كبروا وأصبحوا وقد تمرسوا بالحياة العملية، وانتشروا في الأرض أحراراً، ولم يعودوا عبيداً أرقاء. حدث هذا مراراً منذ القرن الثامن عشر، وحدث مثله سنة ١٩٠٠م عندما لقي المسيحيون حتوفهم على أيدي طائفة "المصارعين" في الصين، وباع المسيحيون أبناءهم، فلم يجدوا من يشتريهم غير المسلمين، الذين كان دافعهم الأساسي لهذا العملِ إنسانياً خالصاً.

ولا عجب إذا كان ذلك من أهم العوامل التي جعلت عدد المسلمين في الصين يتكاثر باستمرار، خصوصاً بعد أن توغل العنصر العربي في المجتمع الصيني وتزوج من الصينيات، فكثر النسل وسلمت السلالات الجديدة من العلل والأمراض الخبيثة الناجمة عن تعاطي المخدرات، وارتكاب الفواحش. ويجب ألا ننسى أن العنصر العربي المسلم في الصين قد وجد عناصر أخرى تزيد من قوة وجوده، واستمرار بقائه، إذ التقى معهم على صعيد الصين مسلمون آخرون من أجناس أخرى مجاورة، وإن كانت لا تصل إلى أهمية العنصر العربي الوافد والمقيم.. من حيث الاندماج في المجتمع الفضفاض وتجديد نسيجه بالحضارة الإسلامية.. وتغلغلها في الحياة العامة.

ملوك... وملوك:

بين ملوك الصين، وملوك العرب.. علاقات قديمة، معروفة في كتب التاريخ عند مؤرخي الصين والعرب على السواء، وفي طليعة المؤرخين العرب المسعودي الذي يرجع في تاريخ هذه العلاقات إلى أحد ملوك التبابعة وهو (أسعد أبو كرب) الذي ملك الموصل وأذربيجان، وانتصر على الترك ثلاث مرات، ثم بعث ثلاثة من أولاده للغزو، واجتياح بلاد الفرس، وبلاد الصغد (من بلاد أمم الترك وراء النهر)، وبلاد الروم. أما الأول فملك بلاد الصغد حتى (سمرقند) العاصمة، وقطع المفاوز حتى وصل إلى الصين، ورجعا بالغنائم والأسلاب بعد أن تركا ببلاد الصين قبائل من (حمير) فهم بها حتى القرن الرابع الهجري.

تلك هي أقدم علاقة بين ملوك العرب والصين، فيما كتبه مؤرخونا، ومما وقعت حوادثه منذ أكثر من ستة عشر قرناً من الزمان. وفي القرن الأول من تاريخ الهجرة، وعلى وجه التحديد سنة ٩٦هـ، أرسل الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي قائده المغوار قتيبة بن مسلم والي خراسان.. إلى الصين، فلما أثخن فيها، وأحس ملك الصين بقرب انهيار عرشه، طلب الصلح، فأوفد قتيبه إليه هبيرة بن مشمرج، فجنح الفاتح العربي المسلم إلى السلم، ولقي الإسلام والمسلمون منذ ذلك الوقت من ملوك الصين كل تكريم وتقدير. وفي سنة ١٠٨ هـ أوفد هشام بن عبد الملك من قبله سليمان رسولا إلى إمبراطور الصين (هسوان تسونج)، وفي سنة ١٣٩هـ استنجد ابنه (سوتسونج) بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ليسترد به سلطانه المسلوب من أيدي الثوار، فكان له ما أراد، واستقر المسلمون بعد النصر الذي أحرزوه ببلاد الصين، وتزوجوا من بناتها وطابت لهم الإقامة بها.

وفي القرن الرابع الهجري، توثقت الروابط بين العرب والصين عن طريق المصاهرة إذ أوفد الأمير المسلم نصر بن أحمد الساماني من قبله رسولا إلى فالين بن الشخير ملك الصين يخطب ابنته لابنه الأمير نوح، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلي خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلاثمائة من الجواري والخصيان، وتزوج منها نوح[1].

وفي مطلع القرن الخامس نشبت الحروب بين (طغان) ملك الترك، وملك الصين، كانت الدائرة فيها على ملك الصين. وفي القرن السابع

[1] معجم البلدان.

تغلغل العنصر المغولي في الصين، واعتنق ملوكهم[1] دين الإسلام وجعلوا (كاشغر) عاصمة دولتهم الجديدة، وأسلم منهم جنكيزخان وترماشين. وقد أشير على ملك الصين المغولي (بركة)[2] بمهادنة الخليفة العباسي المستعصم، ومن ثمة تبودلت الهدايا والرسائل بين أكبر قوتين إسلاميتين إحداهما دولة الصين وعاصمتها (كاشغر)، والأخرى دولة بني العباس الهاشمية القرشية العربية وعاصمتها بغداد، ثم صار (القان أو الخان) لقباً على ملوك الصين، وصارت (خان بالق) التي هي (بيكين) قاعدة المملكة الصينية، و(قراقوم) قاعدة التتار.

ولما انتشر العنصر المغولي المسلم في الجهة الغربية، والشمالية الغربية من البلاد. أخذ الصينيون الأصليون يتربصون بالمسلمين الدوائر، ولاسيما عندما أعلن الأمير يعقوب خان سنة ١٢٨٠هـ استقلاله بمملكة (كاشغر) في الشمال الغربي، التي عندها التقى بالصينيين، فانتصر عليهم وكان جيشهم يتكون من أكثر من مائة ألف مقاتل، وعلى أثر هذا النصر المبين، زلزلت الصين زلزالها، إذ أوشك الأمير يعقوب خان أن يجعل الصين دولة إسلامية سنة ١٢٩٣هـ[3]. ولكنه كان في ذلك الوقت محصوراً بين دولتين، كلتاهما له عدو لدود هما: الصين وروسيا، فاضطر إلى مهادنة هذه وعقد معها معاهدة تجارية، ولما أراد دعم الوحدة الإسلامية، بايع السلطان العثماني بالخلافة، وانضوى تحت لوائه، ليكون له عضدًا وسنداً، وطلب

(١) تاريخ ابن خلدون.

(٢) صبح الأعشى.

(٣) صفوة الاعتبار.

من دار الخلافة خبراء في الفنون الحربية وسائر الصناعات الهندسية، وأعد الجيوش، ولكن المنية عاجلته قبل أن يشهد ثمار جهوده، فانقسمت تركته بين أولاده واغتنم ملوك الصين هذه الفرصة، فانقضوا على دويلاتهم وعادت إلى الصين كما كانت من قبل.

ويجب أن نتذكر هنا تلك المكاتبات بين ملك الصين المغولي المسلم أحمد بن هولاكو وسلطان مصر التركي الناصر مُحَّد بن قلاوون، فقد كتب أحمد بن هولاكو مع قاضي القضاة قطب الدين والأتابك بهاء الدين ليقول لصاحب مصر إن المغول "من الله على بصيرة وإن الإسلام يجب ما قبله" وقد أورد أبو الفرج الملطي نص هذه الرسالة[1].

هذا وقد كانت رحلة ابن بطوط إلى الصين في عهد (ألقان) المسلم سلطان الصين الذي أكرمه وهيأ له من أسباب الراحة، ما جعله يطوف بأرجاء البلاد، وتحدث عن أمير أمراء الصين وهو الأمير الكبير (قرطاي)، وقد أقام له مأدبة بداره. واستضافه ثلاثة أيام، وكلف أولاده بمصاحبته في الزورق مع أهل الموسيقى والطرب "وكانوا يغنون بالصيني والعربي والفارسي"[2].

---

[1] مختصر الدول.

[2] تحفة النظار.

الفصل الثالث

ثقافة العرب في الصين

بداية التراث:

إذا نظرنا إلى الثقافة بالمعنى العام الذي يتعامل به علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا)، كان لزاماً علينا أن نتناول، فيما نحن بصدده، ما خلفه العرب منذ البداية في الصين من تراث اجتماعي يتضمن اللغة والدين والعادات والتقاليد والفنون والصنائع والآداب والعلوم، ومظاهر الحياة اليومية من ملبس ومأكل ومشرب، وحياة الفرد في أطواره مع المستويات الاجتماعية، ونظام المعيشة، والتفاعل بالجهاز الحكومي المحلي والمركزي، ونتائج الهجرات في النسل والسحنة واللون والقامة.. إلى غير ذلك.

وسنحاول في هذه الصفحات القليلة أن نوجز الإجابة على هذه المطالب، بما يفي بالغرض، على أساس أن المراجع العربية والصينية قديمها وحديثها، لا تسعفنا بمادة خصبة منظمة، كما هو المأمول، قياساً على المعلومات المنهجية المعروفة في المؤلفات المعاصرة. ومع ذلك سنكتفي هنا برسم الخطوط العريضة للثقافة بالمعنى الضيق، ونحاول التعرف علي الآثار العربية في الصين منذ وطئت أقدامهم أرضها في الجاهلية والإسلام. وبعبارة أخرى نقول: ماذا أعطى العرب الصين؟ أما سؤالنا: ماذا أخذ العرب عن

الصين؟.. فجوابه في مكان غير هذا من الكتاب.

وقد رأينا من قبل كيف انتقل العرب في الجاهلية إلى الصين للتجارة يحملونها إليها ومنها، براً وبحراً.. وكان هذا الانتقال من مواطن بالجزيرة العربية عمرت بالحضارة التي مركزها منطقة اليمن، وقد اشتهرت منذ القدم بالسيوف والحرير بصفة خاصة. ومعنى ذلك أن المصنوعات والمنسوجات العربية وجدت طريقها من اليمن إلى الصين ليستبدل بها التجار طرفاً وتحفاً يكاد بريقها يخطف الأبصار، وكذلك الخيول العربية الجياد التي كان اقتناؤها في الصين وقفاً على الأباطرة وأغنى أغنياء الأعيان بها.

أما التراث العربي فقد انتقل فعلا إلى الصين في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، وهذا ما يؤكده مؤرخو الصين أنفسهم لهذه الفترة، فيقولون إن العرب دخلوا الصين الوسطى جماعات كالطوفان من مسافة تزيد على ألف فرسخ حاملة معها الكتب المقدسة التي خصص لها بهو في القصر الإمبراطوري حيث تعرض ترجمات صينية لها ولغيرها من كتب القانون، ومن هنا كان بدء انطلاقها وذيوعها في مختلف ولايات الصين، منذ حكم البلاد الإمبراطور (تاوتسونج) سنة ٦٥١هـ، وهو التاريخ الذي يحدده مُحَمَّد تواضع الصيني المسلم كمبدأ لدخول العلوم الإسلامية. أما المراكز الرئيسية لنشر الثقافة العربية في الصين، فكانت من غير شك بين جدران المساجد التي أخذت تتزايد حتى انتشرت في الولايات والمدن والقرى والأحياء.. ويضاف إليها أيضاً المعهد الإسلامي الذي أنشيء في مدينة هوش **Hochow** بولاية (خانسو) حيث كان يتلقى به الطلاب علوم الدين، ثم ينقلبون إلى ولايتهم، فينشرون بها ما تلقوه على أيدي أساتذتهم،

وبدأوا– كما يقول (برومهول) **Broomhall** نشاطهم في أكثر من حواضر عشر ولايات، أعدوا فيها أذهان الناس لتقبل مبادئ دين العرب.

وإلى جانب مراكز الإشعاع الإسلامي في الصين، يجب أن نذكر (لانشوما) وهي أول مدرسة إسلامية في الصين، وهي نسبة إلى منشئتها (لانشوما) المسلم الفقير الذي عاش في (لانشو) عاصمة (خانسو)، ولم يكن يملك من حطام الدنيا غير طاحون صغير، فكان يعمل به هو وتلاميذه نصف النهار لكسب القوت، ثم ينصرف في المساء إلى الدرس في (لانشوما) وبهذا أمكنهم التفقه في أمور دينهم، ووفر عليهم مشقة السفر إلى (بخارى) و(سمرقند).

الصين.. والمعارف:

في "طبقات الأمم" الذي وضعه صاعد الأندلسي (٤٦٢هـ) جاء ترتيب الصين منها في الطبقة السابعة أو الأخيرة، من حيث العناية بالعلوم، وقال منوهاً بنصيبهم المتميز في المعرفة "وحظهم من المعرفة – التي بزوا فيها سائر الأمم– إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع".

بهذا قصر صاعد براعة أهل الصين على الفنون والصنائع، وعلى ذلك فهم أحوج إلى الثقافة العربية من علوم نظرية تطبيقية كالحساب والفلك، ليخرجوا عن طريقها من عالم الأشباح والأساطير والخرافات، إلى عالم الحقائق والوقائع، مما لم تستوعبه الكونفوشيوسية التي يدينون بها، والتي

أصبحت مهددة بخطر داهم، من جراء انتشار دين العرب في الصين.

وكان من الضروري والمعقول معاً أن يؤكد الإسلام – أولاً وبادئ ذي بدء – وجوده، ويحدد معالمه في الصين كنظام للعبادات والمعانلات، حتى إذا تمكنت العقيدة من قلب الفرد، انطلق في حماسه لتطبيقها على نفسه كجزء من المجتمع، والتصرف في حماسة لتطبيقها على نفسه كجزء من المجتمع، والتصرف وفق تعاليمها، وفي نطاق أبعادها، وحدودها المرسومة

ومن هنا كان دين العرب أول تراث لهم من ثقافتهم يأخذ طريقه إلى الصين، عن طريق اللغة التي نزل بها القرآن، والتي هي أولى ركائز حضارتهم وعمود قوميتهم، وسبيل علاقاتهم بغيرهم من الأمم، وكان من الطبيعي أن تنتشر بعض الألفاظ العربية، وتحتل مكانها من لغة الصين حسبما قرره ابن خلدون من أن المغلوب يقلد حتماً لغة الغالب، وإن كان العرب في هذه الحالة غير غالبين بحق السيف، ولكنهم مع ذلك غالبون بحق العقيدة وتوالي الهجرة وازدياد النفوذ، ومرور الأجيال، مع الاستقرار.

انتصار اللغة العربية:

وأكثر الألفاظ العربية ذيوعاً في لغة الصين تشير إلى الأخلاقيات، بما يدل دلالة واضحة على تعطش الصينيين الكونفوشيوسيين إلى مزيد من الثقافة الأخلاقية، فكان لهم من لغة الإسلام ما يروي ظمأهم ويشفي غلتهم، فهذه الألفاظ: قربان. إيمان. حق. باطل. كذب. روح. صبر. صدقت. حقيقة. زكاة. حج. عالم. جاهل. وعظ. رزق. شفاعة..[1] كلها

[1] بدر الدين حي الصيني: العلاقات بين العرب والصين.

مما دخل في لغة الصين بكثرة، وتناقلته الألسنة.

وكان لا بد من وجود تراجمة ينقلون إلى الصينية تفاصيل الدين الإسلامي، وبطبيعة الحال كان لا بد أن يكون هؤلاء التراجمة من بين العرب أنفسهم الذين مارسوا التجارة بين الأمتين، واكتسبوا خبرة باللغتين من طول ترددهم على الصين ولاسيما المخضرمين منهم الذين عاشوا في الفترة ما بين الجاهلية والإسلام، وأسلموا.

ونتج عن ذلك حتما بدء حركة الترجمة إلى الصينية، ترجمة القرآن والسنة والأحكام الدينية والسيرة النبوية، وما يتبع ذلك من علوم الدين والدنيا، كما ترجمت العلوم الكونية من العربية وعلى رأسها الفلك العربي، بناءً على أمر الإمبراطور، وذلك سنة ٧٨٦هـ = سنة ١٣٨٤م، ونهض بهذا العمل علماء الإسلام وحكماء كونفوشيوس معاً، وعلى أثر ذلك جعلت حكومة الصين التقويم العربي نافذاً في جميع أرجاء البلاد بصفة رسمية.

وتوالت بعد ذلك الدراسات والترجمات من اللغة العربية إلى لغة الصين بأقلام صينية إما أصلية وإما مستعربة.. تناولت البحوث الكلامية والتصوفية والأخلاقية والفيزيقية، فظهرت ترجمة صينية لكتاب "الغرض من الرجوع إلى الحق" في علم التوحيد، و"الفصول الأربعة في علم العبادات بالأدلة العقلية" في مطلع النصف الأخير من القرن الحادي عشر الهجري، ووضع العالم الصيني "ماشي بابا" كتاب "درة الناصحين" في التصوف.

وشهدت المجالس علماء الإسلام في مناظرات مع علماء البوذية،

تدور حول التصوف والطبيعة، وكان الأباطرة يسمحون لهم بالتفرغ للبحث والدراسة، وإعفائهم من التجنيد، وأعدوا لهم مساكن خاصة في (نانكين)، وعرف منهم: (تاي يو آخوند) مؤلف كتاب "الدراسة الكبيرة في الإسلام".

واشتهرت في الأوساط الإسلامية بالصين كتب عربية ذات قيمة منها "هداية المسلمين" في التوحيد، و"حقيقة الإسلام" في التصوف، ومنذ أربعمائة سنة، والدراسات الإسلامية في الصين تزداد وتتنوع، بعضها بالعربية وبعضها بالصينية، وبعضها مترجم عن الفارسية إلى العربية أو بالعكس، من ذلك: كتاب "المبادئ للمسلمين" كتبه (تاي يو) سنة ١٠٨٣ هـ في الفقه، وظهر أيضاً قاموس عربي صيني كتبه بحروف عربية (جان تسي موي) وعنوانه "جوهر" وفي سنة ١٠٩٠هـ وضع (شاي يوشان) كتابه "موقظ الضالين". ومن أشهر المؤلفين في عهد الملك (يان تسونغ) العالم الصيني (ماجو) الذي ينحدر من سلالة شمس الدين عمر الشريف العربي، فقد ظهر له كتاب "الإبرة المغناطيسية في الإسلام" سنة ١٠٧٦هـ، وقد حباه الملك بالتكريم، وأغدق عليه من عطفه لقاء ما كان يلقيه بين يديه من مسائل عسكرية عن الإسلام.

وفي سنة ١١٠٣هـ ظهر كتاب "نبذة عن العبادات" وهو أحد مؤلفات العلامة (مي وان كي) شرحه بالأدلة الكونفوشيوسية، مما يدل علي رسوخ قدمه وتضلعه في العلوم الإسلامية والفلسفة الكونفوشيوسية.

ومنذ نحو مائتين وخمسين سنة غادر العلامة الصيني المسلم (صالح ليوجي) مدينة (نانكين) في سبيل الحصول على مراجع إسلامية، دعاه من

أجلها العالم (ما)، وعلم وهو في الطريق بوجود كتب عربية كثيرة في حوزة أسرة (سيو) مودعة في قوية (جوسيان)، فعثر منها على كتاب بالفارسية عن السيرة النبوية يقتنيه بعض الأفراد، فما لبث أن ترجمة إلى لغة بلاده، ثم نقل إلى الإنجليزية بعنوان "النبي العربي"، هذا فضلا عن مؤلفات صالح ليوجي الذائعة الصيت في القرن الثاني عشر الهجري ومنها "آداب الإسلام" و"الطبيعة في الإسلام" و"سيرة المصطفى" وهو الكتاب الذي غادر من أجله نانكين إلى (شان تونغ) في شتاء سنة **١١٣٣**هـ وقدم له سايو الذي ينتمي أصلا إلى سلالة هاشمية. وفي القرن الماضي وضع العلامة (نور الحق ماجي بون) كتباً بالعربية والفارسية والصينية في النحو والصرف والفلك والبيان والمنطق، والتوحيد والتصوف والكيمياء.

وفي مطلع القرن العشرين ظهرت تفاسير صينية للقرآن، والحديث، ودراسات مقارنة بين الإسلام والمسيحية والكونفوشيوسية والبوذية، وأشرف بعضهم على مجلات دورية تصدر بالعربية، وظهر كتاب "الزواج بين الصينية والعربية" كما ظهرت سنة **١٩٣٢** ترجمة للقرآن، والقاموس العصري، كما أن "رسالة التوحيد" للشيخ مُحَمَّد عبده قد ظهرت لها ترجمة صينية وتعليقات ضافية يقلم عثمان عفيف الدين ماشوي تو آخوند. وظهرت ترجمات صينية لمؤلفات طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وفريد وجدي وعبد المتعال الصعيدي ورشيد رضا ومُحَمَّد عبده، ومُحَمَّد غلاب.

وهكذا وقف أهل الصين طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان على التراث العربي قديمه وحديثه وفي مختلف ميادينه، وكان للبعوث الصينية إلى

الأزهر الشريف بالقاهرة أكبر الأثر في دعم روابط الأخوة بين هاتين الأمتين، عن طريق الثقافة العربية لغة وديناً وعلماً وأدباً. وفي سنة ١٩٣١ عين أول شيخ لرواق الصينيين بالأزهر وهو مُحَمَّد إبراهيم شاه كوجين.

ولسنا ننسى هنا في العالم العربي ما كتبه مُحَمَّد تواضع بعنوان "الصين والإسلام"، وبدر الدين حي بعنوان "العلاقات بين العرب والصين" وكلاهما بالعربية الفصحى، ويفصحان عن عمق التفكير وتقصي الحقائق والمعلومات استناداً إلى أوثق المصادر العربية والصينية مع مقارنتها بما كتبه الألمان والطليان والإنجليز والفرنسيون والأتراك والفرس وغيرهم.

ويكفي أن نشير إلى أن الكتاب الأخير المنشور بالقاهرة سنة ١٩٥٠ قد دبجه قلم المؤلف الذي تخرج في الجامعة الإسلامية بدلهي والجامعة الأزهرية بالقاهرة، وهذا أكبر مظهر على التبادل الثقافي بين الصين والقاهرة قلب العروبة النابض.

وإلى جانب التراث الديني انتشر في الأوساط الثقافية بالصين كثير من المؤلفات في الطب العربي سنة ١٢١٥م عندما غزا قبلاي خان ملك المغول بلاد الصين، وكان لأهل الصين اهتمام خاص بعلم الفلك، واشتهرت به مدرسة سمرقند التي طالما اقترنت بمدرستي الفلك في بغداد والقاهرة، واشتهرت أيضاً رسالة ابن يونس في الفلك عندما ترجمها ونشرها في الصين العالم الصيني في الفلك (كوشوكنغ) سنة ١٢٨٠م.

الأوربيون في حيرة:

وإذا كانت الدراسات الإسلامية قد انتقلت إلى الصين من البلاد

الإسلامية المجاورة من الأتراك والفرس والمغول، فإن انتقالها إليها من منابعها العربية الأصلية كان أسرع وأبلغ نفاذاً، لأن النقل عن العربية مباشرة أيسر من النقل عن أي لغة أخرى كالتركية أو الفارسية أو الهندية، خصوصاً وأن دول الإسلام تلك كانت هي الأخرى أشد ظمأ من الصين إلى ينابيع التراث العربي الأصيل. وعندما تكلم (جوستاف لوبون) في كتابه "حضارة العرب" قال: إن العرب قد نقلوا الكثير من ثقافتهم العلمية إلي الصين، مما حدا بالأوروبيين إلى الظن بأنها ثقافة ترجع إلى أصل هندوسي أو صيني.

وكانت غارة المغول على الصين سنة ١٢١٥ ميلادية نقطة مهمة في تاريخ الثقافة العربية، فعلى أثرها تعزز مركز العلوم العربية في الصين، واتسع نطاقها، سواء من حيث النقل أو الاقتباس أو الترجمة. كما أن علماء الصين بعد أن استوعبوا الكثير من ألوان التراث العربي، صاروا يقدمونه إلى الهنود في آنية صينية، وأصبح الباحثون في تراث الصين كثيراً ما يخلطون– عن جهل– بين ما هو صيني أصيل، وما هو عربي منقول.

وعلى كل حال كانت (بيكين) أو (كاشغر) العاصمة القديمة للثقافة العربية أشبه بخلية النحل من كثرة سكانها الذين كانوا يبلغون يوماً ما نحو مليونين وربع مليون نسمة منهم ١٧٠ ألف مسلم، وكان مسجد (نيو– كيي) الذي أنشأه بها ناصر الدين سنة ٩٩٧م غاصاً على الدوام بحلقات الدراسة. ويوجد في (بيكين) هذه اتحاد للأدباء في الوقت الحاضر، وقد وجه الدعوة لأحد الأدباء المصريين وهو الأستاذ محمود البدوي لإلقاء محاضرة عن (الأدب المصري والكتاب المصريين الذين حملوا الشعلة الوطنية حتى فقامت الثورة الكبرى بقيادة جمال عبد الناصر)، وكان في هذا

الاتجاه من الصين نحو مصر منذ قامت الثورة بداية طيبة لبدء صفحة جديدة من العلاقات الوثيقة بين الدولتين، على أساس حكيم من ثقافتنا البصيرة، وسياستنا الرشيدة القائمة على التعايش السلمي، تماماً كما فعل العرب الأولون عندما استوطنوا الصين منذ أربعة عشر قرناً أو أكثر.

العرب.. يكتبون عن الصين:

إن من دواعي الفخر حقاً، أن يكون العرب أسبق الأمم كتابة عن الصين وأغزرها مادة، وأدقها وصفاً، وأعمقها إدراكاً، وأبعدها نظراً، وأصدقها رواية وشهادة، فلا عجب إذا كانت "العربية" أول مصدر للمعرفة الحقيقية عن هذه البلاد السحيقة المفعمة بالأساطير، المليئة بالعجائب والغرائب.

لقد بدأ العرب يكتبون عن الصين منذ وطئت أقدامهم أرضها، ولكن لم نستطع الوقوف على ما كتبوه عنها إلا على يد تاجر عربي من البصرة، رحل إلى الصين فكتب معلوماته في العام التالي لرحلته أي سنة ٢٣٧هـ = ٨٥١م.. ومع ذلك كان هذا التاجر واسمه سليمان البصري، أول من كتب عن الصين- على ما نعلم- حتى الآن، فلا عجب إذا استحق منا كل تقدير وإعجاب، إذ أصبح رائداً لجميع المؤلفين الذين جاءوا بعده، وأغلبيتهم العظمى أيضاً من العرب.

ولا تنحصر أهمية السبق العربي في الكتابة عن الصين فقط، وإنما تتسع هذه الميزة أيضاً حتى تجعل من الثقافة العربية سجلا وافياً، يمكن أن يستقي منه كل دارس – في أي ميدان من ميادين المعرفة – عناصر قوية

للكشف عن نواحي التطور الاجتماعي لأي جزئية دقيقة من جزيئات العلوم والفنون والآداب.

ولقد مضى حين من الدهر، اختفت فيه المصادر العربية من خزائنها فإذا بها تظهر من جديد في أوروبا وأمريكا منشورة بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية، وعليها تعليقات وشروح لعدد كبير من المستشرقين فأصابوا الرصينة التي أقيمت عليها دعائم البحوث الأنثروبولوجية الحديثة.

الفصل الرابع

الصين بين يديك

أبو الصين:

زعموا – ولا ندري من هم الذين زعموا – أن الأرض عندما مات نوح عليه السلام، توزعت بين أولاده، فاختص بنو يافث بن نوح بالمشرق، فصنع عابور بن سويد بن يافث سفينة كما فعل جده من قبل، وحمل عليها أولاده، فأقلعت بهم عبر البحر الشرقي بمحاذاة الساحل إلى نهايته، حتى نزل أرضاً شاسعة، سرعان ما عمروها، فأنشأوا المدن، وشيدوا العمائر، واستخرجوا المعادن، وشقوا الأنهار، وغرسوا الأشجار، فلما مات عابور خلفه ابنه صابور وهو أبو الصين[١]. فيكون هو أصل الصينيين الذين هم ذرية عابور، منذ عبر بهم نهر بلخ واستوطنوا جميعاً هذه البقعة الشاسعة من الأرض، وجعلوا عاصمتهم الأولى (أنمو)[٢].

ويقال إن أول ملوك الصين هو (صاين) بن باعور أو عابور صانع السفينة، وبه سميت (الصين) حيث استمر حكمه بها ثلاثة قرون[٣] وكان (حرامان) أحد أبناء (صاين)، وفي عهده صنع أهل الصين السفن، وحملوا فيها الرجال، وأوفدوهم بالهدايا إلى الهند والسند وبابل، فقدموها إلى ملوك

---

[١] نخبة الدهر.

[٢] مروج الذهب.

[٣] تاريخ اليعقوبي.

هذه البلاد، وعادوا منها أيضاً بما فيها من طرائف، ليقف ملك الصين على ما عند غيره من الممالك، ورغب جيرانه الملوك في زيارة الصين، وإغرائهم بالجواهر والعطور والآلات التي حملوها إليهم. بهذا لفتت الصين أنظار الأمم، فأسرعوا ببناء السفن، التي حملت وفودهم إليها، ومن ثمة بدأت الصين علاقاتها السلمية والتجارية بغيرها[1].

الصين.. عربية!!

حاول الكاتب العربي ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري، أن يبحث عن أصل تسمية "الصين"[2]، فعرض لآراء القدامى كابن الكلبي الذي روى عن الشرقي أن الصين كانت تسمي أيضاً (غرابنا) نسبة إلى (غبر) بن كماد بن يافث بن نوح.. ومنه المثل العربي؛ ما يدري شغر من بغر.. ومنهم أبو القاسم الزجاجي الذي يرد أصل التسمية إلى (صين) بن بغبر بن كماد، أول من نزل بها وتدبرها. ثم يذكر بلداناً أخرى كل منها تسمى (الصين) ولكنها غير (الصين) وهي:

١- الصين : موضع بالكوفة

٢- الصين موضع قريب من الإسكندرية.

٣- الصينية: بليدة مشهورة تحت (واسط) بالعراق.

٤- صينية الحوانيت: اسم آخر لهذه البلدة الأخيرة.

---

[1] مروج الذهب.

[2] معجم البلدان.

وإذا نسب إليها قيل (صيني)، فهذا سعد الخير الأندلسي الصيني (-٥٤١هـ) وقد سافر من الأندلس إلى الصين، وكان يكتب الصينية، وينسب إلى صينية واسط.. وإبراهيم بن إسماعيل الصيني من الكوفة وذهب في تجارة إلى الصين فعرف بالصيني.. وعبد الرحمن الصيني التاجر المغربي[1]- الذي ذكره أبو حامد الغرناطي - وكان ممن زار الصين وتحدث بعجائبها.

أبواب الصين:

يقول ابن الوردي نقلا عن الهردي أن للصين اثني عشر باباً[2]، وهي صخور عتيدة في البحر، بين كل باب وآخر مسلك يؤدي إلى موضع بعيد عن بلاد الصين، كالمتاهات، فإذا ضلت السفن طريقها وانحدرت في هذه الشعاب البحرية أو المتاهات ارتمت في تيارات جارفة من المياه الملحة والعذبة، حتى تبعد عن الموانئ التي تقصد الرسو عليها من سواحل الصين.

عجائب بحر الصين:

شغلت هذه العجائب أذهان العرب الرحالة، فأخذوا يحكونها لمعاصريهم، وبطبيعة الحال أضافوا إليها من أخيلتهم حواشي جعلتها تشوق سامعيها وتحفز بعضهم إلى ارتياد هذه البلاد. منها ما حكاه البكري (-٣٦٣هـ) في كتاب "الممالك والمسالك" بمناسبة الحديث عن دابة في البحر توجد في البحر الحبشي تسمى "الأوال"، حيث الجزيرة التي لعلها سميت

---

[1] تحفة الألباب.

[2] خريدة العجائب.

(أوال) لهذا السبب، والسمك هناك يسمى "الأوالي" طول الواحدة منها أربعمائة ذراع إلى خمسمائة "وربما هدأ البحر فيظهر طرف من جناحيه كالشراع العظيم وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من غلوه سهم ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فيه، وقد فغر فاه فتهوي إلى جوفه جرياً، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى (الإنك) فتلصق بأسفل أذنها أو أذنبها فلا يكون لها منها خلاص حتى تضرب برأسها وتموت فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم".

ويتحدث البكري أيضاً عن (العنبر) الذي يقتله حوت (الأوال) فيطفو فيصيده الزنوج، ومنها ما حكاه القزويني في القرن السابع الهجري، وضمنه كتابه "عجائب المخلوقات" فتحدث عن ركوبه بحر الصين مع التجار، فهبت عليهم ريح عاتية حولت المركب عن طريقه وكان الربان أعمى، ومع ذلك كان حاذقاً، واستطاع بخبرته أن ينجو بالمركب والركاب من دوامة بحرية كادت تودي بحياتهم.

ومنها ما حكاه ابن الوردي في القرن الثامن الهجري وضمنه كتابه "خريدة العجائب" فروى عن عبد الرحمن المغربي الذي ركب بحر الصين، فألقتهم الرياح على جزيرة واسعة رأوا فيها قبة بيضاء تلمع وتبرق ويبلغ ارتفاعها أكثر من مائة ذراع، وكأنها الجبل الراسخ، فأخذوا يضربونها بالفئوس والصخور والأخشاب وإذا بها "بيضة الرخ" وقد انشقت عن فرخ الرخ، وتعلقوا بريشة من جناحيه وظلوا يجذبونها حتى قلعوها وقتلوه، وطبخوا بعض لحمة، فاسودت لحاهم بعد البياض، ولم يعد للشيب أثر على وجوههم، وفي وضح الشمس حوم فوق سفينتهم طائر الرخ العظيم، فألقى

حجراً ضخماً في البحر كان له دوي عظيم، لو سقط فوقهم لأهلكهم أجمعين.

وتحدث ابن الوردي أيضاً عن "جزيرة الحكماء" التي وصل إليها الإسكندر ذو القرنين، ووصف بخياله المجنح سكانها وما جرى بينهم وبين الإسكندر من حوار شائق ينتهي إلى مغزى أخلاقي مفاده أن الموت يسوي بين الأمير والفقير، كما يحكي لنا أيضاً عن "التنين" الكائن المائي الضخم الذي احتل مكانه من التصاوير الصينية والأساطير العربية.

ويصور لنا ابن بطوطة في رحلته ما شاهده بنفسه في بحر الصين عندما حملتهم الرياح نحو جبل يبعد عنهم بعشرين ميلا، ولا عهد للبحارة بجبل في هذا المكان من البحر، فأوشكوا على الهلاك، أولا أن رأوا هذا الجبل يرتفع في الهواء وإذا به طائر الرخ الذي كانوا يتخيلونه جبلاً، فقد ذكر الجاحظ أن طول جناحه عشرة آلاف باعا، وشهرته في بحر الصين تعدل شهرة التمساح في نيل مصر.

مراكب الصين:

رأينا كيف صنع "أبو الصين" السفن، كما فعل جده الأكبر "نوح" من قبل، وحمل ذريته عليها حتى وصل بهم إلى أرض الصين التي سميت باسمه، وعمرها هو وأولاده، ولما استقروا بها بعثوا إلى الممالك المجاورة بالهدايا، فتشجع الملوك على صنع السفن، وأوفدوا بعوثهم بالهدايا، ومن هنا كانت نشأة العلاقات البحرية بين الصين وسائر الأمم.

وقد وصف لنا ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري السفن الصينية

التي شاهدها وصفاً دقيقاً، إن دل على شيء، فإنما يدل على تقدم الصين في صناعة السفن، ويؤكد ما رواه العرب القدامى عن تاريخ البحرية الصينية.

ذكر ابن بطوطة أن سفن الصين ثلاثة أصناف: الكبير يسمى (جنك) وجمعه (جنوك) والمتوسط منها يسمى (زو) والصغير يسمي (ككم)، ويكون في المركب الكبير ما بين ثلاثة قلوع إلى عشرين، ويصنع القلع من الخيزران الرفيع منسوجاً كالحصر، ويظل على الدوام منصوباً يدور مع الريح حيث دارت. ويحتوي كل مركب على ستمائة بحار وأربعمائة مقاتل من كل نوع حتى رماة النفط، ويتبع كل مركب ثلاثة هي: النصفي والثلثي والربعي، واشتهرت "الزيتون" بصناعة السفن، وهي إحدى موانئ الصين.

وقد أسهب ابن بطوطة في تفاصيل هذه الصناعة والخشب والمسامير الضخمة التي تصنع منها، وعدد المجاذيف التي على جوانب السفينة وعدد المجذفين، وما تحتويه من الغرف، والخضروات والبقول والزنجبيل الذي يزرعونه في أحواض من الخشب على ظهر المركب، ويتحدث أيضاً عن أهمية القبطان وطريقة تقديم التحية العسكرية له إذا نزل إلى البر، والمرابطة على بابه طول مدة إقامته حتى يعود إلى استئناف رحلته.

"ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه إلي البلاد" كما يقول ابن بطوطة.

وكان لا بد من اهتمام علماء "المسالك والممالك" من العرب بذكر الطرق البحرية بين بلادهم وبين الصين، فترى ابن خرداذبة في القرن الرابع الهجري يصف لنا مسالك السفن من مصب نهر دجلة عند (الأبله) إلى

الهند والصين، ويذكر أن السفن العربية كانت تحاذي الساحل العربي وساحل الهند حتى مليار، كما يحدد طول البحر من القلزم إلى بلاد (الواق واق) أي اليابان بأربعة آلاف وخمسمائة فرسخ.

سور الصين العظيم:

وهو من عجائب الصين، التي عني بها المؤرخون، ولكن أكثرهم قد خلط بينه وبين سد يأجوج ومأجوج. أما سور الصين فيبتدئ من الشطوط الشرقية، ويمتد في الصين حتى درجة عرض ٤٠ شمالا، ودرجة طول ٢٩ شرقاً، ويبلغ امتداده نحو ١٢٥٠ ميلا، وسمكه من أسفل نحو ٢٥ قدماً، ومن أعلى نحو ١٥ قدماً، وارتفاعه يتراوح بين ١٥ قدماً و٢٠ قدماً. وتوجد عدة حصون في عدة أماكن علي امتداده يبلغ ارتفاع بعضها ٤٠ قدماً. وهو مبني من الحجارة والآخر والقرميد والطين[١]

وقد أقامه أحد ملوك الصين وهو (إينج تسونج) من أسرة (تسين) قبل ميلاد المسيح بنحو ٢٢٠ سنة، لصد هجمات المغول والقبائل الشمالية عن المملكة الصينية الأصلية، على أن ذلك لم يأت بالفائدة، لأنهم فعلا اقتحموا هذا السد المنيع، واجتاحوا البلاد وأثخنوا فيها. وهذا السور لم يعد كما كان من قبل، فقد أصابه الخراب من عدة جهات، وتهدم بسبب الغارات المتلاحقة على الصين في مختلف العصور، فتصدى لها (شي خوانغ تي) بقواته في إحدى هذه المرات.

وإذا كان الأوربيون ينكرون (سد يأجوج ومأجوج) الذي أقامة ذو

---

[١] صفوة الاعتبار.

القرنين، فإن العرب قد كتبوا كثيراً وكثيراً جداً عن هذا السد أو الردم، كمفسرين للآيات الواردة عنه في القرآن والسنة والخبر. أو كمؤرخين. أو كمكتشفين ذهبوا بأنفسهم إلى موضعه من الصين، للاعتبار والذكري. وكما كان الخلط عندهم ظاهراً بين الإسكندر الأكبر المقدوني وبين ذي القرنين. كان كذلك الخلط بين سور الصين. وسد يأجوج ومأجوج، وكلاهما إحدى عجائب الدنيا.. ولكل منهما تاريخ.

يأجوج ومأجوج:

من النادر أن نجد من بين مؤلفي العرب واحداً يفرق بين (ذي القرنين) و(الإسكندر الأكبر) فهما عندهم – بما يشبه الإجماع – شخص واحد، هو الذي فتح المشارق والمغارب، وانتهى من فتوحاته إلى ما لا وراءه نبات أو حيوان أو إنسان، وارتبط اسمه بالصين، ويأجوج ومأجوج، والسد العظيم، مما ورد في التوراة والإنجيل والقرآن فيما بعد.. فكيف يكون (ذو القرنين) الذي عني به العرب هو الإسكندر المقدوني فاتح المشرق؟ وهل كان الإسكندر نبياً أو رسولاً حتى ينزل عليه وحي من السماء؟ "قلنا يا ذا القرنين..."؟ ومن الطبيعي أن يحاول المفسرون البحث عن "يأجوج ومأجوج" من هم؟ ما صفاتهم؟ أين وجدوا؟ ماذا فعل بهم ذو القرنين؟ ثم ما هو ذلك الردم أو السد الذي حجزهم خلفه؟ ولماذا؟ وماذا وراء قصتهم الواردة في القرآن من مغزى؟ ومؤرخو العرب لم يغفلوا هذا كله أو بعضه فيما كتبوا، وكذلك علماء الدين واللغة، مع تفاوت عجيب بين كتاباتهم عن الموضوع، ومع كثرة تلفت النظر حقاً..

وبتجريد القصة من تهاويلها، نخرج منها بأن يأجوج ومأجوج قبائل همجية من ذرية يافث، يسكنون بين جبلين، والمسالك إليهم وعرة، وتمتد رقعة أرضهم إلى أقصي الشمال حتى بحر الظلمات، معيشتهم فوضي وفساد وعبث بالأمن، وطالما ضج منهم بالشكوى سكان الصحاري المتاخمة للصين من الغرب حيث يبدأ الإقليم السابع من أقصى الشمال مما يلي الإقليمين الخامس والسادس، لا حصر لهم، لا دين لهم، لا نظام لهم، عمالقة وأقزام، جيرانهم وأبناء عمومتهم الترك..

استصرخوا ذا القرنين.. وقد مكن الله له في الأرض وقالوا إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فاجعل بيننا وبينهم سداً.. على أن يجعلوا له أجراً، ولكن ذا القرنين استعان بالترك.. فجمعوا الرجال وأحضروا الحديد والنحاس.. وبنى عليهم ردماً حال بينهم وبين الفساد في الأرض فأمنوا شرورهم إلى يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين.. وبلغ هذا الردم من المتانة حداً لا يتصوره العقل، لأنه من الحديد المنصهر في النار، والمثبت بالنحاس المذاب، ويرتفع إلى مستوى الجبلين الواقعين بين أرمينية وأذربيجان، ممتداً إلى مائة فرسخ طولاً، وخمسين ذراعاً عرضاً، ومائتي ذراع ارتفاعاً فما استطاعوا أن يصعدوا إليه أو أن ينقبوه.. وما استطاعوا بعده أن يهلكوا الحرث والنسل كما كان شأنهم من قبل.. وتركهم ذو القرنين يومئذ يموج بعضهم في بعض..

وفي ذات ليلة رأى الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧– ٢٣٢هـ) في منامه أن سد يأجوج ومأجوج قد انفتح، فأزعجته الرؤيا، وظن أنها القيامة، فأصدر أمره إلى ترجمانه سلام بالسفر إلى السد ليأتيه بالخبر اليقين، وأجزل

له في العطاء والنفقة، وخرج سلام من (سامراء) ثم عاد بعد أن عاين أمره وقص على الخليفة ما رآه، ثم عاد بعد أن عاين أمره، وقص علي الخليفة ما رآه وحضر الوزير ابن خرداذبة حكايته للخليفة وسجلها في "المسالك والممالك". شهد سلام المدن التي خربتها يأجوج ومأجوج، والحصون القريبة من الجبل الذي أقيم الردم في أحد شعابه، ورأى أقواما مسلمين يتكلمون العربية والفرنسية، ولهم مساجدهم ومدارسهم، ولكنهم في عزلة تامة عن العالم، حتى وصل إلى جبل منقطع في هضبة ملساء، بها جبل عريض، وبه سد يأجوج ومأجوج، لا نقب فيه ولا كسر، وجاء بمقاساته للخليفة بكل دقة، ومعه قطع من الحديد الذي تخلف من بناء السد العظيم..

وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم، في سورتي "الكهف" و"المؤمنون" رداً على سؤال اليهود للنبي عليه السلام عن ذي القرنين "الذي سلك إلى المشرق" حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، قالوا: يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً. قال: ما مكني فيه ربي خير، فأعينوني بقوة، أجعل بينكم وبينهم ردماً.. آتوني زبر الحديد (قطع الحديد)، حتى إذا ساوى بين الصدفين (الجبلين) قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً، قال آتوني أفرغ عليه قطراً (نحاساً)، فما استطاعوا أن يظهروه (يصعدوا إليه)، وما استطاعوا له نقباً، قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري، وكانوا لا يستطيعون

سمعاً"... "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج (أي السد المقام في وجههم لحجزهم) وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا.. ".

ولعل في هذا الموجز عن قصة سد يأجوج ومأجوج ما يصلح لأن يكون محاولة للإجابة على السؤال الذي أثرناه من قبل وهو: لماذا أراد العرب أن يعرفوا الصين؟.. وها قد عرفنا كيف كانت هذه القبائل المجاورة للصين موضع اهتمام العرب لفهم ما ورد عنهم في القرآن الكريم..

العمران بالصين:

إذا تركنا جانباً ما نقله العرب عن تعمير أولاد نوح لبلاد الصين أول ما نزلوا بها، وإقامتهم المدن، وشقهم الأنهار فيها والتمسنا مظاهر هذا العمران عند أقدم عربي زار الصين وسجل مشاهداته بها، نرى حديثاً ضافياً للرحالة سليمان السيرافي الذي زار هذه البلاد في القرن الثالث الهجري، وذكر لنا نواح متعددة للحياة الاجتماعية فيها، منها النشاط التجاري في ميناء (خانفو)، وتولية رجل مسلم منصب الحكم في الصين من قبل الملك، وشيوع لبس الحرير في الصين صيفاً وشتاء. وإن اختلف نوعاً عند الملوك والعامة، والأرز كطعام العامة، والحنطة (القمح) كخبز للملوك، ووفرة التفاح والخوخ والرمان والسفرجل في البلاد، ووجود ملوك محليين في مدن الصين البالغ عددها مائتين، والأبواب الأربعة التي لكل مدينة، وعادات الصين في دفن الموتى، وانتشار الخط والكتابة لا فرق في ذلك بين غني وفقير أو صغير وكبير، وأن أي ملك عندهم لا يتولى الحكم إلا بعد

الأربعين من عمره، حرصاً على إقامة العدل، ووجود قضاة للفصل بين الناس، وفي كل مدينة مدرسة ومعلم، ويتعلم الفقراء بها هم وأولادهم على نفقة بيت المال، وبينما ترى النساء في الصين حاسرات سافرات ترى الرجال يضعون أغطية على رؤوسهم، ومنازلهم من الخشب، وهم جميعاً يحبون الملاهي.

وبعد مائة عام تقريباً من هذه الرحلة يحدثنا أبو دلف مسعر أيضاً عن مشاهداته في الصين، ومظاهر العمران فيها بعد اختراقه الآفاق من المغرب إلى المشرق، ووصفه الدقيق للمعيشة التي عليها كل قبيلة مر بها في طريقه إلى الصين من مأكل وملبس ومشرب وكذلك العادات والجنسيات والعبادات السائدة فيها، حتى ينتهي إلى وصف الحياة في (سندابل) حاضرة الصين، كما رآها.

وفي القرن السابع الهجري يتحدث القزويني في "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" عن الهيكل الوثني المستدير المقام بأقصى الصين، وأبوابه السبعة، والقبة الضخمة العالية، والجوهرة التي في أعلاها كرأس العجل وتضيء جميع أقطار الهيكل، والبئر الواسعة التي فيه، والطوق الذي على رأسها، وعليه خط قديم معناه: هذه البئر مخزن الكتب التي هي تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض، وما كان فيها وما يكون، ولا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا، وهذا الهيكل مقام على صخرة عالية كالجبل الأشم، ومن تعرض لهدمه أو اقترب منه عشرة أذرع مات لساعته.

ومن عجائبها أيضاً طاحون له حجران أعلاهما لا يتحرك بينما الأسفل هو الذي يدور، فيخرج من بينهما دقيق لا نخالة فيه ونخالة لا

دقيق فيها، لا يختلط أحدهما بالآخر.

ويحكى أيضاً أن بالصين قرية يجتمع أهلها كل سنة حول غدير ماء فيها، فيلقون فرساً كلما أرادت الخروج منه ردوها إليه، حتى يسقط المطر، فإذا أخذوا من الماء كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبحوها فوق جبل مرتفع، وتركوا لحمها طعمة للطير، وفي اعتقادهم أنهم إن لم يفعلوا ذلك كل سنة، كان الحرمان نصيبهم.

وعلى الرغم من الموضوعات المنوعة عن الصين، المتناثرة في طيات المؤلفات العربية، فإن لدينا عنها ذخائر لا تنفد، تضمنتها "مروج الذهب" للمسعودي البغدادي، وهو "تحفة النظار" لابن بطوطة الطنجي، أولهما عاش في القرن الرابع الهجري، وقد سمع وقرأ كثيراً عن الصين، والآخر عاش في القرن الثامن الهجري، وقد رحل بنفسه وشاهد، فسجل مشاهداته.

أما المسعودي – كمؤرخ– فقد لفت الأنظار إلى تاريخ الحضارة الصينية، عندما جعل سنة ٢٦٤هـ حداً فاصلاً بين عهدين من تاريخ هذه البلاد، فقد كان ملوك الصين الذي أوجز المسعودي سيرهم صالحين مصلحين سواء في الداخل أو الخارج، واتسمت عهودهم المختلفة بالعدل والإصلاح وتوطيد علاقاتهم بغيرهم، واستمروا على ذلك حتى تمرد أحد العصاه وهو (ياسر) فجمع الأشرار حوله، وأعلن الثورة على الملك، وزحف بجيشه إلى مدينة (عاصور) الواقعة على نهر الصين العظيم، واستولى عليها، ثم على (خانفو)، ومات في المعركة منها أكثر من مائتي ألف ما بين قتيل وغريق، وكان ذلك سنة ٢٦٤هـ، وعندها نغير كل شيء.

لقد أمر (ياسر) بقطع غابات التوت، فأقطع الحرير الصيني عن بلاد الحصار بهزيمة الملك وجنوده، ولكنه استنجد – وهو على مدينة (مد) على حدود التبت – بملك الترك ابن خاقان. فأنجده بأربعمائة ألف مقاتل تحت إمرة أحد أولاده، وظلت الحرب بينهما سجالا خلال سنة كاملة، فكانت الدائرة على ياسر، ومن التف حوله من ملوك المقاطعات.

وعاد ملك الصين (يعبور)، كما تسميه العامة أي: ابن ماء السماء، وقد أنهكت هذه الحرب الضروس كل قواه، واستقل كل أتباعه السابقين كل بمقاطعته، ولم يعد يطمع منهم في غير الولاء الأسمى له، ومكاتبته باسم "ملك الصين" حرصاً على أمن البلاد وسلامتها من الغارات الأجنبية والفتن الداخلية، وكان هذا الحدث التاريخي بداية لعهد تقسيم الصين إلى الولايات أو المقاطعات المعروفة إلى اليوم.

ونظر ابن بطوطة إلى الحضارة الصينية نظرة المشاهد لا نظرة المؤرخ، فقال: "وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض، ويخترقه النهر المعروف بـ (آب الحياة) ومعنى ذلك (ماء الحياة)، ومنبعه من جبال تسمى (كوة بوزنه– جبل القرود)، ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر، إلى أن ينتهي إلى (صين الصين)، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذه أكثر عمارة، وعليه النواعير (السواقي) الكثيرة، وببلاد الصين السكر الكثير، مما يضاهي المصري بل يفضله، والأعناب والأجاص، وكنت أظن أن الأجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الأجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ (خوارزم) و(أصفهان)، وكل ما

ببلادنا من الفواكه، فإن بها ما هو مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جداً، ولم أر قمحاً أطيب منه، وكذلك العدس والحمص".

ويتحدث ابن بطوطة أيضاً عن صناعة الفخار الصيني (الخزف)، وقد اشتهرت به (مدينة الزيتون) ومنطقة (صين كلان)، وشرح طريقة تصنيعه من تراب الجبال، وتصديره إلى الهند بل إلى بلاد المغرب، ومما لفت نظر ابن بطوطة في الصين، ضخامة حجم الدجاج، وضآلة حجم الأوز، حتى إن الديك الصيني – كما رآه– على قدر النعامة، وفي مدينة (كولم) سبق له أن رأي الديك الصيني، فلم يصدق حتى رآه بعينه.

وكما عني ابن بطوطة بهذه المظاهر العمرانية في بلاد الصين زادت عنايته بمظاهر التقدم الاجتماعي، فلفت أنظارنا إلى الفضائل التي يتحلى بها الفرد والمجتمع، الحاكم والمحكوم على السواء، مما سنفصله في الصفحات القادمة.

وقد حكى تاج الدين السمرقند – وكان ممن زار الصين، فقال: "وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد، ومن قرية إلي قرية". كما تحدث عن المدن المشهورة وعلى رأسها قاعدة المملكة (خان بالق) ثم (قراقوم) قاعدة التتار، والحسناء (خانسو أو) أعظم الموانى الصينية، ثم (الزيتون) وهي ميناء أيضاً، وكذلك المدن التلا ذكرتها الكتب (ينجو) و(خانفو) و(خانجو) و(سوسة). ولما كانت التبت جزءًا من الكيان الصيني فقد حظيت هي الأخرى بعناية ابن بطوطة وغيره، وقورنت ظباء الصين بظباء التبت، وجودة المسك هنا عما هناك، بسبب المرعى، وتسلطت التبت ردحاً من الزمن على الصين والهند والترك والزنج وغيرهم وكان

ملكها يسمى (الشاه– ملك الملوك).

والفيلة كثيرة بالصين كثرتها بالهند، ويحكي لنا صاحب "السيرة الحلبية" عنها فيقول "رأيت أن ملك الصين كان في مربطه ألف فيل أبيض". وإذا كان ابن بطوطة قد حدثنا عن حيوان (الكركدن) – كما شاهده في رحلته – ببلاد السند، وكيف يصاد، فإن ابن خرداذبة قد وافانا بفكرة عن أهمية "قرن الكركدن" بالنسبة لأهل الصين، فيقول إنه إذا شق قرن الكركدن من أوله إلى آخره ظهرت منه صورة بيضاء في صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاووس أو أي طائر آخر، فيتخذه أهل الصين مناطق (أي أحزمة جمع نطاق أو منطقة) ثمن الواحدة منها يتراوح ما بين ثلاثمائة دينار وأربعة آلاف دينار. ويتحدث ابن النديم هو الآخر عن أسرار هذا القرن فيما عرفه من الراهب النجراني الذي دخل الصين، فيقول إن (البشان) أفخر حلية لمقابلة الملوك في الصين، وهو القطع التي عليها صور مرسومة من غير رسام على القرن، ولما كان ثمنه غالياً للغاية، أمر الملك بإبطاله والاستعاضة عنه – في المثول بين يديه – بمناطق الذهب وما يشبهه، وعلم الراهب مما سمعه من علماء الصين وفلاسفتها أن الأنثى عن المخاض، ترتسم على قرن وليدها أي صورة يراها عند الوضع مباشرة، ذلك الحيوان مما يوجد بالصين وهو غير الكركدن.

الفصل الخامس

أهل الصين

صدق.. أو لا تصدق:

كل ما أثبته العرب عن الصين إنما يعد من العجائب والغرائب، سواء في ذلك روايات الرحالة والمؤرخين والجغرافيين عن غيرهم، أو شهادات الزائرين بأنفسهم لما لمسوه وعاينوه، ومن هنا كانت أكثر المعلومات العربية عن هذه البلاد متضمنة في كتب تم عناوينها عن ذلك مثل "مروج الذهب" و"عجائب البلاد"، و"نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" و"خريدة العجائب وفريدة الغرائب" و"تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار" و"صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" و"عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" و"تحفة الألباب وتحية الإعجاب"، إلى هذه العناوين التي تثير الاهتمام، وتشوق القارئ، فضلا عن الحرص على هذه المعاني في تسمية الكتب مثل "نزهة المشتاق واختراق الآفاق"، وسائر كتب "المسالك والممالك".

وكان من الطبيعي أن تلقى هذه الغرائب وتلك العجائب من العرب فريقاً يصدق وفريقاً لا يصدق، احتكاماً إلى العقل، واستناداً إلى موازين التعديل والتجريح، خصوصاً وأن العرب قد أثبتوا براعتهم في "علم الرواية" فكانوا رواداً مبرزين في تمييز "الخبر" الصادق من الكاذب، من حيث

"المتون" "والأسانيد" على حد سواء.

وقف "الإخباريون" العرب من أخبار الصين، مواقف العلماء الخبراء: فلم يأخذوها على علاتها، بل أخذوا يمحصونها، عن طبع أصيل في التأليف المأثور عنهم، وهذه صورة تاريخية توضح لنا معالم هذه الحقيقة.

يقول الرحالة أبو حامد الغرناطي[1] "وكنت بمصر سنة ٥١٢هـ واجتمعت بها بالشيخ أبي العباس الحجازي – وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب، فقلت له يا أبا العباس: إني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى، وكان الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر محمد بن الوليد الفهرى حاضراً (ويقصد الطرطوشي عالم الإسكندرية الذي روى عن الحجازي أيضاً فيما يتعلق بالصين، وأشار كثيرا، ولا يمكن أن أحدث بها، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب، فقال الشيخ الإمام أبو بكر (الطرطوشي) يكون ذلك من العوام الجهال، وأما العقلاء وأهل العلم فإنهم يعرفون الجائز والمستحيل". من هذا يتضح تماماً أن الثقافة العربية في عنايتها بأخبار الصين من شتى النواحي الطبيعية والبشرية إنما صدرت عن ثقات، حرصوا على تخليص موضوعاتها من الشوائب والتهاويل، وعندما أوردوها على حقيقتا، تناولتها أقلامهم الحرة بالنقد والتمحيص، ولكن دون تغيير أو تشويه، وتلك هي الأمانة.

---

[1] تحفة الألباب وتحيه الإعجاب.

شعوب وقبائل:

كان المسعودي أول مؤرخ عربي عني بتاريخ وأجناس سكان الصين، ورد أصلهم إلى عابور بن يافث بن نوح الذي عبر نهر بلخ منذ آلاف السنين، ويمم بأولاده بلاد الصين الأكثر منهم وتفرقوا فيها. فمنهم: (الجيل) سكان جيلان، والأشروسية، والصفر، وهم بين بخاري وسمرقند، ثم الفراعنة والشاس وأسبجار، وأهل بلاد العبرات، فبنوا المدن واشتغلوا بالزراعة، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء سكنوا الصحاري: الترك الحرمح والطغرغر وأصحاب مدينة توسان (بين خراسان والصين)، وهم أشد أجناس الترك بأساً وأقوى شوكة وأضبط نظاماً.

هم إذن بدو وحضر، كما يفهم من كلام المسعودي الذي كتب ذلك قبل غيره من المؤلفين العرب- فيما نعلم- وهو القائل أيضاً إن أهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ويرعون ذلك، وينتسب الرجل إلي خمسين أباً حتى يصل إلى عابور وما بعده.. ولا يتزوج الرجل إلا من أهل الفخذ الذي ينتمي إليه، "ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصح للبقاء وأتم للعمر". وكأني بالمسعودي لا يقرهم علي هذا "الزعم" لأن العرب هم أيضاً "يزعمون" أن الزواج في الأقارب مدعاة للنسل الضعيف الضاوي، حسبما يروى عن النبي عليه السلام "اغتربوا لا تضووا".

على كل حال، هذه هي محاولة عربية رائدة لتفهم أجناس الصين، قام بها مؤلفنا العربي القديم، وقد عرفنا منه وممن سبقه ولحقه سائر الأجناس

الأخرى التي امتزجت بالدماء الصينية وعلى مر العصور بسبب الهجرات التي تلمسنا خطوط تقدمها نحو الصين من آسيا وإفريقية، من عرب وعجم وزنوج وغيرهم، فضلاً عن موجات الغزاة المتتابعة التي من شأنها الاختلاط بين الأجناس، والآن صار عنصر التتار المغول هو الغالب على جميع الأجناس، وأخذ العرب يضربون المثل بدمامة أهل الصين، وقصر يأجوج ومأجوج، ويقول عنهم ابن الوردي إنهم قصار ضخام الرءوس. وقد ذكرنا في مواضع متفرقة من الصفحات السابقة فترات انتقال العربِ إلي الصين، وعلى ذلك يكون العرب المهاجرون من تبابعة اليمن إلى هضبة التبت، قبل الإسلام بقرون، قد أصبحوا عنصراً مهماً في الشعب بل الشعوب الصينية تميزوا باللون والسحنة والشعر والأنف والقامة وبالتالي في الفوارق المميزة للحضارات بعضها عن بعض، وهم أشبه بالعرب في الألوان والخلق من سائر الأمم"[١].

كما أن حملة قتيبة بن مسلم التي يممت شطر الصين في نهاية القرن الأول الهجري كان لها اعتبارها أيضاً في أهل الصين ولاسيما بعد أن تزوج العرب على أثر هذه الغزوة من الصينيات، فجاء النسل بجنس يحمل الملامح العربية.

وعلى كل حال فإن منافذ العرب إلى الصين ظلت مفتوحة على الدوام، عن طريق البر وطريق البحر، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، لأن إحدى جزر الخليج العربي كانت عامرة بقبائل عربية، ومنها كان الصيادون والتجار ينتقلون إلى الهند ومنها إلى الصين، على أي نحو من الأنحاء.

---

[١] الدمشقي: نخبه الدهر في عجائب البر والبحر.

اللغات في الصين:

بلاد شاسعة الأرجاء كالصين تمتد أربعة أشهر في ثلاثة، وتقوم في أرجائها المترامية الأطراف جبال وهضاب وسلاسل، وشعاب وفجاج.. من الطبيعي ألا تكون وسيلة التفاهم فيها لغة واحدة.. وهذا الأمر قد شغل مؤلفي العرب القدامى منهم قبل المحدثين، فالإصطخري المعروف بالكرخي– الذي هو من رجال القرن الرابع الهجري – يقول "ولمملكة الصين ألسنة (لغات) مختلفة.. فأما أرض الصين والتبت فلهم لسان (لغة) مخالف لهذه الألسنة[1]".. وإذا عرفنا أن الإصطخري – الذي نقل عنه ابن حوقل أيضاً هذه العبارة – قد اعتمد على كتاب "صور الأقاليم" لأبي زيد البلخي، تبين لنا أن العرب لم يغفلوا هذه الجزئية من مقومات المجتمع الصيني. كما أن "أبا دلف في عبوره بالقبائل التي عددها قبل دخوله الصين، حدثنا عن العرب البادية المقيمين بموضع يقال له (القليب) استقر فيه من تخلف من التبابعة عند غزوهم بلاد الصين وقال عنهم "يتكلمون بالعربية القديمة، لا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا"[2].

الديانات في الصين:

لم يترك العرب جانباً من جوانب الحياة عن الصين إلا ذكروه في مؤلفاتهم، ولاسيما الديانة، وقد رأينا فيما سبق كيف احتفظوا بعقائدهم عندما دخلوا الصين قبل الإسلام وبعده. مع البداوة والحضارة سواء

---

(١) المسالك والممالك.

(٢) ياقوت: معجم البلدان.

بسواء، كما أن المؤرخين والجغرافيين لم يغفلوا ذكر الديانات السائدة، كل في العصر الذي عاش فيه، وكل حسبما بلغة أو شهد بنفسه.

فهذا الرحالة العربي سليمان البصري، يحكي لنا – عند زيارته للصين– أن أهلها يعبدون الأصنام، ويزعمون أن الأصنام تكلمهم، وإنما يكلمهم عبادها، وهم يؤمنون بالتناسخ، وتناسخ الأرواح من الظواهر الدينية التي عرفت منذ أقدم العصور في الهند والصين.

ويقول المسعودي إن مذهبهم المانية (أي المانوية أتباع ماني) والسمنية وتشبه عبادتهم عبادات قريش قبل الإسلام؛ إذ يسجدون للأصنام، أما عقلاؤهم فإنهم يعبدون الخالق، ويتخذون مع ذلك تماثيل من الصور والأصنام يتوجهون إليها بالعبادة، وقد انتقل إليهم هذا الدين من الهند بحكم الجوار، وكثيراً ما كانت تشب الحروب بين الترك والصين، في حالة الاختلاف بينهما حول ذبح الحيوان، وعقيدة الملك فيه.. ذلك أن ملوكهم ذوي آراء ونحل متعددة، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن أحكام العقل والحق، في إقامة القضاة والحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري، يحدثنا العالم البغدادي المشهور (ابن النديم) صاحب "الفهرست" عن أحوال أهل الصين، ولاسيما عن علماء موثوق بهم كأبي بكر الراوزي، وأبي دلف عن طريق التواتر، وجماعة زاروا الصين ومن بينهم راهب نجراني قدم منها سنة ٣٧٧هـ، أو رجل صيني لقيه قبل سنة ٣٥٦هـ أو جماعة من أهل أندلس الصين.

أما الراهب فقد قص على ابن النديم أن أموراً جرت في الصين قضت

على المسيحية بها، وانتهت بتخريب كنائسها، وإفناء النصارى جميعاً اللهم إلا رجلاً واحداً.. ولم يذكر لنا السبب في ذلك.. وقال أيضاً في موضع آخر من كتابه إن صورة (البغبور= ابن السماء= ملك الصين) موجودة بالمعبد الكبير بمدينة (غراز) وهي في أرض (خانقون)، وذكر أن مذهب أهل الصين الثنوية والسمنية وأن العامة يعبدون الملك ويعظمون صورته، وهم إذن يعبدون الأصنام ويقدسون الملوك. ويقارن أبو حامد بينهم وبين أهل الهند لأنهم مثلهم لا يأكلون الحيوان ولا ما يخرج منه كاللبن والعسل، ويحرمون على المسلمين ذبح البقر، وكل ما عدا ذلك فهو لهم مباح. وقد سبق أن أشرنا إلى رحلة أبي دلف إلى الصين، ويكفي هنا أن نذكر له في هذا المقام عنايته بتعريف العالم العربي بديانات القبائل الصينية التي نزل بأحيائها، ومنها عرفنا الكثير عن المسلمين الموحدين، والعلويين الزيديين، واليهود والنصارى والمجوس والهندوكيين، وتشريعاتهم، وقد جاء في "معجم البلدان" لياقوت أن معبد الصين أكبر من مسجد بيت المقدس، وأن فيه تماثيل وتصاوير، وفيه أيضاً أصنام، وبد (صنم) كبير بمثابة المعبود الأكبر، ومما قاله اليعقوبي عنهم إنهم أهل أوثان وأهل نيران ويعبدون الثعابين.

وفيما ذكره ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري أن "أهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود.. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة "حي" للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم، ولهم فيها المساجد.. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم".

وفي القرن الماضي أحصى بيرم التونسي الأديان في الصين في أربعة على النحو الآتي:

- ديانة بو: وهى التي كانت سائدة فيما قبل التاريخ بأربعة آلاف سنة، وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد أدخل عليها كونفوشيوس كثيراً من التعديلات، فعرفت باسم الكونفوشيوسية.

- ديانة لوتسية: ويعتنقها نحو مائة مليون.

- ديانة بوذا: وقد ظهرت في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد.

- الإسلام: وقد ظهر في القرن السابع الميلادي، ويدين به نحو ستين مليوناً ما بين مواطنين وجنود مرتزقة من عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد بلغ عدد المسلمين في (بيكين) العاصمة نحو عشرين ألفاً، ولهم بها بها جامع ضخم يسميه أهل الصين (هوي هوي Hui- Hui)، فضلا عن عشرين مسجداً آخر كلها لأصحاب المذهب الحنفي السائد فيما عدا اثنين منهما للشيعة، ويكتب المسلمون على أبواب مساجدهم (خوي خوي تانغ) أي محل الجماعة الإسلامية، و(تسين جسن سور) أي معبد الإله الحق، ويطلق الصينيون على علماء الإسلام (لاوجونو) أي المعلم الأكبر، ويسمون جوامع المسلمين (ليطاسو) أي محل العبادة الأسبوعية[١]

ملوك الصين:

تناول العرب ملوك الصين من جوانب متعددة، فمنهم من حرص على ذكر تتابعهم الزمني، ومنهم من تحدث عن عباداتهم الخاصة وما يختلفون فيه عن سائر الشعب، ومنهم من تناولهم في فترات النصر والهزيمة

---

[١] صفوة الاعتبار.

في الفتن الداخلية من جهة، وفي الحروب مع غيرهم من جهة أخرى، وكان أهم ما عنوا به في سير الملوك ما اتصفوا به من عدل في سياسة رعيتهم، ورووا عنهم في ذلك حكايات وأقاصيص.

كتب اليعقوبي عن ملوكهم الأوائل، حتى (توتال) الذي شرع لهم الأحكام والصناعات، واستمر في الملك ثماني وسبعين سنة، فحزنوا عليه عند وفاته، وكتب ابن الأثير فصولا ضافية عن التاريخ الحربي لملوك الصين في مواضع متفرقة من تاريخه حتى القرن السابع الهجري، قلما نجدها في مؤلفات أخرى عربية أو غير عربية، فهو مثلا عندما يذكر أخبار الصين سنة ٢٦٤هـ يشير إلى حزم ملك الصين الذي وضع حداً لأعمال القرصنة البحرية والمناوشات التي جرت حوادثها بين السفن العربية والصينية، وكان لتدخل ملك الصين في الأمر أثره في تخفيف حدة التوتر التي أصابت العلاقات التجارية بين العرب والصين خلال القرن الثالث.

وكان ملوك الصين يشملون برعايتهم أهل الفن، وكان لهم نظام تقليدي في تشجيع البارعين منهم فيه، كما سنتناول ذلك عند الكلام على الفنون في الصين. ولما اكتسح المغول بلاد الصين، وتحولوا عن المجوسية إلى الإسلام، نهض المؤرخون العرب والفرس بتأريخ هذه الفترة من حياة الملوك طوال القرنين السابع والثامن الهجريين، فكتب عنهم رشيد الدين الهمداني وابن خلدون والقلقشندى. وتناولوا حروبهم وانتصاراتهم، وما ترتب عليها من علاقات بالبلاد الأخرى المجاورة وغير المجاورة، وتأثير هذه الحروب في الاستقلال المحلي الذي صار طابعاً لملوك المقاطعات وملوك المدن، مع استمرار الولاء لملك الملوك.. وعني العرب أيضاً بذكر السفارات بين ملوك

الصين وسلاطين الإسلام بشأن المصاهرة، والرسائل المتبادلة بين أحمد بن هولاكو التتارى ملك الصين، والناصر مُحَّمد بن قلاوون سلطان الديار المصرية.

وقد رأينا في حديثنا عن الديانات في الصين، كيف كان العامة يقدسون ملوكهم، وينظرون إلى أن الواحد منهم (بغبور) أي أنه (ابن السماء) يسجدون له، كلما وقعت عيونهم على صوره وتماثيله.

ومما حكاه الراهب النجراني لابن النديم أن في مدينة (بغران) بأرض الصين معبداً ضخماً طوله عشرة آلاف ذراع وعرضه مثله، مصنوع من الصخر والآجر والذهب والفضة، وهو مخصص للسجود أمام صورة الملك، والطريق إليه محفوف بالتماثيل والصور والأصنام "تبهر عقل من لا يعرف كيف هي وأي شيء موضوعها".

ويعقب الراهب على ذلك وهو يتحدث مع ابن النديم[١] بقوله:

الراهب : والله يا أبا الفرج أن لو عظم أحدنا من النصارى واليهود والمسلمين الله جل اسمه تعظيم هؤلاء القوم لصورة ملكهم، فضلاً عن شخص نفسه، لأنزل الله له القطر (المطر)، فإنهم إذا شاهدوها وقع عليهم الإفكل (الخوف) والرعدة والجزع، حتى ربما فقد الواحد عقله أياماً.

ابن النديم : ذاك لاستحواذ الشيطان على بلدهم، وعي جملتهم، يستغويهم ليضلهم عن سبيل الله.

---

[١] الفهرست.

الراهب : يوشك أن يكون ذلك.

ويميز ابن النديم حسبما قيل له– بين دين الشعب ودين الملوك فيقول: "ومن سنة الصين تعظيم الملوك والعبادة لها. على هذا أكثر العامة، فأما مذهب الملك وأكابر الناس فثنوية وسمنية" وعلى ذلك تكون عبادة الملوك (مانوية) نسبة إلى (ماني) القائل بإلهين اثنين – ومنها اشتق المذهب – هما النور والظلام.

هذا ويعتبر ملوك الصين أنفسهم ملوك الناس، فقد رأينا في الحديث الذي دار بين ابن وهب القرشي سنة ٢٥٦هـ وبين ملك الصين أن أشهر ملوك العالم في ذلك الوقت من وجهة نظر الصين خمسة، وعلى رأسهم ملك العرب وهو الخليفة العباسي ببغداد على اعتبار أن الإمبراطورية الإسلامية في عصر بني العباس تقع في وسط الدنيا، وأن جميع الممالك محيطة به، ويلي الخليفة العباسي في الترتيب: ملك الصين، وهو في نظر نفسه "ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكه من رعيتنا، فنحن ملوك الناس" ثم يليه ملك الترك، فملك الهند، وأخيراً ملك الروم..

وقد لخص صاعد الأندلسي– وهو من أهل القرن الخامس الهجري كما نعلم – في "طبقات الأمم" ترتيب ملوك العالم في نظر ملك الصين فقال "وكان ملوك الصين يقولون إن ملوك الدنيا خمسة، وسائر الناس أتباع فيذكرون ملك الصين وملك الترك وملك الفرس وملك الروم، وكانوا يسمون ملك الصين ملك الناس، لأن أهل الصين أطوع الناس للمملكة،

وأشدهم انقياداً للسياسة".

والملابس الحريرية هي الشائعة بين جميع أهل الصين من عامة وخاصة حتى الملوك صيفاً وشتاء. وإن كان الملوك يتميزون عن غيرهم في نوع الحرير الذي يلبسونه.

العدل.. عند ملوك الصين:

اشتهر ملوك الصين عند لعرب بأن الملك لا يتولى العرش إلا بعد الأربعين، ليستكمل القدرة على تحمل الأعباء، وإقامة موازين العدل في الأحكام وسجلوا عنهم الحكايات والقصص، وكذلك توليتهم القضاة والحكام والموظفين في سلم الوظائف، ممن عرفوا بحسن السيرة والاستقامة، وعزلهم بل تأديبهم كل من يسيء إلى سمعة الحكم، فشهد لهم الغرناطي بأنهم "أهل عدل وإنصاف"[١] ومما ذكره سليمان التاجر السيرافي أن رجلا مسلماً كان يتولى الحكم في (خانفو) مجتمع التجار، من قبل ملك الصين[٢].

ومما حكاه سليمان أيضاً عن العدل الذي كان يسود بلاد الصين من أقصاها إلى أقصاها، أنه كانت توجد في كل مدينة شيء يسمي (الدرا) وهو جرس يوضع على رأس الحاكم، مربوط بحبل ممتد على طول الطريق على مسافة فرسخ، فمن كانت له مظلمة من العامة حركوا الحبل، فيدق الجرس، فيؤذن لصاحب الشكوى بالمثل بين يدي الملك لعرض مظلمته

---

[١] تحفة الألباب.

[٢] أخبار الصين والهند.

حتى يعود راضي النفس، وقد أخذ حقه كاملاً.

وأورد المسعودي في "مروج الذهب" قصة طريفة لها دلالتها على تمسك ملوك الصين بأهداب العدل، ولاسيما بالنسبة للواردين على بلادهم من الأغراب، وموجز القصة أن تاجراً من سمرقند غادر خراسان في تجارة إلى العراق، وانحدر من البصرة بالبحر حتى وصل (عمان) ثم (كله)، وعندها ينتصف الطريق إلى الصين، وعندها أيضاً تنتهي مراكب سيراف وعمان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، قادمة بمتاجرها من الصين[1] ومن (كله ركب سفينة صينية إلى ميناء (خانفو) وهناك طلب منه الخصي مبلغاً جسيماً كرسوم جمركية على متاجره، اعتماداً على تبعيته للملك وحظوته عنده، فتوجه التاجر إلى العاصمة (أنموا) ليرفع شكواه إلى الملك وقد لبس الحرير الأحمر، كما تقضي بذلك التقاليد بالنسبة للقادمين من بلد بعيد.

وقبل أن يمثل بين يدي الملك، تلقاه الحجاب، واستمعوا إلى شكواه – كما هي العادة – واستوثقوا من كلامه حتى لا يتعرض للقتل إن كان كاذباً، أو مائة ضربة بالخشبة إن بدا عليه الاضطراب، ثم استأذنوا له على الملك، فأذن له واستمع إليه، ومن حوله الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب وصاحب الميسرة من قواد الجيش، كما هو الشأن عند الملمات والحروب، وأصدر أمره إلى كل واحد منهم بالكتابة إلى المرءوس التابع لهم في كل ناحية من نواحي المملكة، ومنها (خانفو)، أشبه ما نفعل اليوم

---

[1] قبل هذا الوقت كانت مراكب الصين تصل إلى عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبله والبصرة.

بتوزيع نشرات بأوصاف المجرمين لضبطهم، وكتب الملك هو الآخر إلى حاكم الميناء، فذاع الأمر وشاع في جميع أرجاء الصين على اتساع رقعتها وتباعد أقطارها.

وجيء بالخصي فجرده الملك من وظيفته ووبخه على فعلته، وهدده بالقتل ولم يأمر بقتله مراعاة لسابق خدماته للملك، وأنزله من عمله، وجعله حارساً على المقابر الملكية، لأن من لا يستطيع تدبير شئون الأحياء جدير به أن يقوم بحراسة الأموات، أما التاجر الخراساني فقد لقي من الملك كل إنصاف، ورجع وهو يلهج بالثناء على ما حباه من عدل وتعويض سخي.

والقضاء عند الصين يحكم بقتل الكاذب، والمفتري على أي موظف بغير وجه حق، والظالم، والسارق، والزاني[١]. والكافر إذا قتل مسلماً بالصين يقتل هو وأهل بيته ثم تصادر أموالهم وممتلكاتهم، والمسلم إذا قتل كافراً، دفع الدية فقط ودية الكافر عندهم حمار[٢].

وملوك الصين يتخذون من (الخصيان) مستخدمين في جباية الخراج، وبعض المهمات، وبذلك يصلون إلى المناصب التي عن طريقها يحظون بالقرب من البلاط، ولهذا يعمد أهل الصين إلى إحصاء أولادهم حباً في الرياسة، وطلباً للمناصب[٣]، وكثيراً ما كان أحدهم يعيث فساداً استناداً إلى منصبه، فيكون القتل مصيره المحتوم.

---

[١] تاريخ اليعقوبي.

[٢] صبح الأعشى.

[٣] مروج الذهب.

فنون الصين:

كان العرب أسبق الأمم احتفاء بفنون الصين، وإشادة بها، وتقديراً لبراعتهم فيها، "فهم من أحذق خلق الله كفاً بالنقش والصناعة "الفن".." فهم من أحذق الله كفاً بالنقش والصناعة "الفن" كما يقول الرحالة العربي التاجر سليمان البصري، ويؤكد المسعودي هذه العبارة. وهو الذي تلقى كثيراً من معلوماته القيمة مباشرة عن أبي زيد السيرافي، مكمل رحلة مواطنة سليمان، فضلاً عن أنه أحد الرواة عن ابن وهب القرشي في مشاهدته الخاصة بالصين.

لهذا نرى في "مروج الذهب" خلاصة هذه المعلومات الصادرة عن ثقات أمناء، ولاسيما فيما يتعلق بنبوغ أهل الصين في فنونهم، لا يتقدمهم فيها أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه، فيقصد به باب الملك، يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيباً، أجاز صانعه، وأدخله في جمله صناعه، وإن أخرج أحد فيه عيباً ولم يجزه.

ويروى – على سبيل المثال – أن أحد الرسامين في الصين، رسم سنبلة سقط عليها عصفور، على ثوب من الحرير، وكان من البراعة لدرجة أن كل من رآه ظنه عصفوراً حقيقياً فوق سنبلة، أمالها، بينما الرسام تركها قائمة على عودها، فأخطأ.. وعند ذلك اقتنع الملك بوجهه نظره، ولم يكافئ الفنان بشيء.

وكان ملوك الصين يهدفون من وراء ذلك إلى التشجيع على نشر

الوعي الفني، والإفادة من آراء الناقدين للنهوض بالفنون، أو كما قال المسعودي حرفياً "وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال الفكر، فيما يصنعه كل واحد منهم بيده".

وقد أعطانا ابن النديم فكرة واضحة عن الخط الصيني، وطريقة الاختزال السريع في الكتابة الصينية التي هي نوع من النقش يتطلب حذقاً ومهارة حتى إن أخف يد لا تستطيع أن تكتب في اليوم الواحد أكثر من ثلاث ورقات، وأهل الصين يكتبون ديانتهم وعلومهم في المراوح، وقد شهد ابن النديم كثيراً منها. أما طريقة الاختزال في الكتابة عندهم فيسميها "كتابة المجموع" ويشرحها بقوله: " لكل كلمة تكتب بثلاثة حروف وأكثر صورة واحدة، ولكل كلام يطول شكل من الحروف يأتي على المعاني الكثيرة، فإذا أرادوا أن يكتبوا ما يكتب في مائة ورقة، كتبوه في صفحة واحدة بهذا القلم" ثم هم يقدرون علي أن يبسطوها كما كانت بدون إخلال بتفاصيلها.

ويحدثنا مُحَمَّد بن زكريا الرازي أيضاً عن رجل من الصين حضر عنده نحو سنة تعلم فيها العربية قراءة وكتابة في خمسة أشهر حتى صار فصيحاً سريع الكتابة، وقبل أن يسافر إلى بلاده بشهر طلب من الرازي أن يملي عليه كتب جالينوس وعددها ستة عشر كتاباً، فقال له الرازي إن الوقت ضيق، وليس شهر كافياً لذلك، ولكنه استعمل طريقة الاختزال الصينية في كتابة هذه المؤلفات الضخمة في أقرب وقت ممكن، حتى لقد كان الرازي وتلاميذه يملون عليه بأسرع ما يستطيعون، وهو يكاد يسبقهم في كتابة ما يملى عليه.

وهذه الطريقة من الصعوبة بحيث لا يتقنها الذكي السريع في أقل من عشرين سنة، أما المداد الصيني المشهور فقد وجد حظه هو الآخر من عناية العرب، فقال ابن النديم إنهم يركبونه من أخلاط تشبه الدهن الصيني، وقد رأى منه ما يشبه الألواح مختوماً عليها صورة الملك، وقال إن القطعة الواحدة تكفي زمناً طويلاً مع مداومة الكتابة وقلما تنفد، وفي "الفهرست" مثال للخط الصيني القديم. وإذا كانت الصين قد تخلفت في مضمار العلوم عن غيرها – في نظر صاعد الأندلسي – فإنها لقيت من كتابة "طبقات الأمم" مكانتها في ذروة السلم الفني، فيقول عنهم: "وحظهم من المعرفة التي بزوا فيها سائر الأمم، إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن التصويرية، فهم أصب الناس على مطاولة التعب، في تجويد الأعمال، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع".

أما أبو حامد فلا يستطيع أن يكتم إعجابه بالفنون الصينية فيقول بصدد كلامه عن أهل الصين "ولهم أنواع من الصنائع، لا يهتدي إليها غيرهم كالفخار الصيني، والديباج غير ذلك".

وقد أهدى ملك الصين لصاحب مصر الأفضل بن أمير الجيوش نفائس وطرائف لا يمكن تقدير قيمتها بمال منها – كما يقول أبو حامد – قطعة من عود هندي أسود يختم كالشمع، وبعض الأواني الصينية التي تشبه الياقوت المخرم، وقد أهدى أحد أولاد أبي العباس الحجازي – الذي كان يزور الصين – أبا حامد وهو بالإسكندرية، بعض التحف الصينية مثل العود الفائق، وورق الصين الأزرق والأحمر، عليها تصاوير صينية من الذهب تفوق الديباج الرومي.

وكان عبد الرحمن الصيني من التجار الذين عرفوا الصين وعاد إلى بلاده المغرب بأموال طائلة، وكان يتحدث عن عجائبها، ويعرض لنفائسها، وكان عنده "أصل ريشة" جناح الرخ. وهذا الأصل يتسع لقربه من الماء مما كان يثير إعجاب الناس.. وفي الصين – كما يقول أبو حامد أيضاً – "مناديل الغمر" إذا اتسخت ألقيت في النار فتعود نظيفة ولا تحترق، وإذا كانت لكل بلد من بلاد العالم خصائص، فإن حرير الصين، قد بلغ شهرة في مختلف العصور، لم يبلغها سواه، من حيث النوع، ومن حيث النسيج، والصباغة، والرسومات التي تفي عليه كل روعة، وكذلك قراطيس سمرقند التي غطت على قراطيس مصر في المشرق، مع أن قراطيس مصر هذه لا تفوقها شهرة عند أهل المغرب.

ويشهد الدمشقي لأهل الصين أيضاً بهذه البراعة في فن التصوير فيقول: "وهم أحذق الناس بالمهن والصناعات ولاسيما التصوير، حتى إن الرجل يفرق في تصويره بين ضحك الهازئ والشامت والمتعجب والمسرور"[١]

وكلمة "صينية" كان لها مفهومها الخاص في المؤلفات العربية، فقد كانت تعني كل طرفة أو تحفة كائنة ما كانت كالأواني والملابس والتماثيل والتصاوير، لأن الصين وحدها قد اختصت بذلك كله وحدها دون غيرها من البلاد، وفي هذا يقول الغرناطي: "والعرب تقول لكل طرفة من الأواني

[١] نخبة الدهر.

وما أشبهها – كائناً ما كانت (صينية) لاختصاص الصين بالطرف"[١].

وكان حديث ابن بطوطة عن فنون الصين حلقة متميزة من تلك السلسلة الذهبية التي انتظمت إعجاب العرب في مختلف العصور. إذ يقول: "وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصنيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم، ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد "الورق"، موضوعة في الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشياً، مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد "ورقة" قد ألصقوه بالحائط، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه، وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم"[٢] وقد رأينا فيما مضى شدة اهتمامهم بصناعة التماثيل التي كانوا يعبدونها، ويقيمون لها المعابد "الهياكل"، وما يضعونه من التحف والصور فيها، مما تزخرفه أيديهم البارعة.

---

[١] تحفة الألباب.

[٢] تحفة النظار.

وعلى ذلك يكون أهل الصين أول من ابتكر فن التصوير لخدمة العدالة، فإن الباعث لهم على تصوير الأغراب بهذه الدقة وتلك البراعة، هو – كما يقول ابن بطوطة – أن الغريب إذا فر من بلادهم لسبب أو لآخر، بعثوا صورته إلى البلاد للبحث عنه، واتخاذ الإجراءات القانونية معه.

وقد رأينا في المقابلة التي تمت بين ابن وهب القرشي وملك الصين، كيف أن البلاط الصيني كان يحتوي على صور للأنبياء: نوح، موسى، عيسى، مُحَمَّد، وكل صورة تعطي فكرة عن رسالة كل نبي، وخصائص قومه.. ومع ذلك حرص أهل الصين على رسم أشياء معروفة عنهم، فكان انتشارها في الخارج إيحاء بمصادرها.. من ذلك مثلا بعض الرسوم الخرافية كالتنين الصيني، والطيور، والخيول والكركدن، وغيرها مما تحلت به التحف من الذهب والفضة والخزف والبللور والملابس الحريرية والستائر والأواني والمجوهرات.

تحف الصين.. عند العرب

لم يذهب عربي إلى الصين وعاد منها إلا ومعه "صينية" بالمعنى الواسع، وفي أي وطن يكون ذلك العربي تحظى التحف الصينية هذه بالعجب والدهشة، فطالما حرص الأكابر على اقتنائها من ملوك وسلاطين ووزراء وتجار، وطالما حفلت بها القصور والدور، وقاعات العروش في المشرق والمغرب، سواء كان هذا الاعتناء عن طريق الشراء من التجار، أو عن طريق الإهداء من ملوك الصين، أو عن طريق الاستيلاء عليها إبان الحروب والغزوات.

ففي سنة ١٣٤هـ غزا خالد بن إبراهيم أهل "كش"، فانتصر على ملكهم، واستولى على كثير من الأواني الصينية المزركشة[١] والمطعمة بالذهب، فضلا عن السروج والحراير والطرف والتحف التي لم يكن قد رآها أحد من قبل، وكلها من صنع الصين، وكان في بغداد كما يقول اليعقوبي[٢] سوق خضير، وكان يباع بها نفائس الصين وحدها فهي معدن طرائف الصين على حد تعبيره.

وكان بالكوفة في القرن الثاني الهجري عدد من الأسرى الصينيين، تعلم منهم العرب كثيراً من فنونهم الدقيقة مثل نسج الأقمشة الحريرية الخفيفة، وصناعة التحف الذهبية والفضية، فضلا عن النقش والتصوير. ومن ثغور الصين كان العرب يشترون المصنوعات الحريرية المختلفة ومنها الفرند (الحرير الملون لصنع الثياب) والكيمخا (الحرير المشجر). فضلا عن المسك والعود وسروج الخيل والسمور (الفراء والخزف[٣]. وفي سنة ٤٢٣هـ بعث أمير بغداد إلى الخليفة العباسي ثلاثمائة مبخرة صينية، بينما كان من كنوز الوزراء الفاطميين بمصر مقادير ضخمة جداً ومنوعة من الخزف الصيني. ومصر اشتهرت بالأواني البلورية الواردة من الصين، وقد تحدث عنها الغزولي المتوفى سنة ٨١٥هـ في كتابه[٤]، كما أن المقريزي المؤرخ لم يفته الحديث عن عظمة أهل الصين في صناعة (التكفيت أي تطعيم المعادن بالذهب والفضة، عند الكلام علي سوق الكفتيين بمصر،

---

[١] الطبري: تاريخ الأمم والملوك.

[٢] البلدان.

[٣] ابن خرداذبة: المسالك والممالك.

[٤] مطالع البدور في منازل السرور.

وكذلك الكداهي (الأواني الفضية) المصدرة من الصين. وقد اكتشفت بعثات الآثار في أطلال الفسطاط بعض التحف الصينية التي شغلت الأثريين طويلاً بالحث عن مصادرها.

ونستطيع أيضاً الوقوف علي بعض الآثار الصينية في البلاط العباسي ولاسيما في أوج عظمة الدولة، أيام هارون الرشيد، ولم يكن صاحب "حضارة الإسلام في دار السلام" مبالغاً في جمعة عناصر الكتاب من مصادرها الوثيقة، التي تذكرنا بالصواني الذهبية تحمل الأكواب والدنانير في الأفراح.. وما كان لبلد في العلم أن يبلغ ما بلغه أهل الصين من الصنعة والبراعة وحسن الذوق في صناعة هذه الصواني وتلك الأكواب.

العادات والتقاليد:

العادة سلوك منظم يقوم به الفرد فيصبح عنده طبيعة ثانية، ومن مجموع العادات المنتظمة في الأفراد تتكون خصائص للمجتمع تميزه عن غيره فتسمى تقاليد، والعرب منذ عرفوا الصين، سجلوا انطباعاتهم عن هذه البلاد، ولكنها جاءت متناثرة بين صفحات مؤلفاتهم، ومع ذلك كان لهم أيضاً فضل السبق على غيرهم في التقاط هذه العادات والتقاليد. فقد ذكر سليمان البصري أن أهل الصين مغرمون بالملاهي، وأن كل من قتل بالسيف عندهم أكلوا لحمه، وبيوتهم من الخشب، ويتزوج الرجل منهم ما شاء من النساء، إلى غير هذه الأمور التي تندرج تحت رءوس موضوعات مختلفة، وقد سار على نهجه أبو زيد السيرافي فذكر الكثير عن طعامهم وملبسهم، وغطاء الرأس عند الرجال والنساء، وشيوع القراءة والكتابة

عندهم، وعاداتهم في دفن موتاهم، وقال فيما قال: "وليست لهم نظافة، ولا يستنجون بالماء". ومن هذا نرى أن سليمان وأبا زيد كانا لا يتركان صغيرة ولا كبيرة عن الصين إلا وكان لها نصيب فيما يرويان أو يكتبان، مع الموازنة بين ما عند الأمتين من نظائر وفوارق.

وحدثنا المسعودي عن الزواج فيما بين الأفخاذ فلا يتعداها على زعم أن في ذلك صحة للنسل وقوة للبنية وأطول في البقاء. ولم يفته الحديث عن عناية ملوك الصين بإقامة العدل، وضبط المعاملات وفق أحكامهم السائدة.

وكان أهل الصين أسبق الأمم إلى "السجل المدني" وإحصاء المواطنين وجيرانهم في البلاد القريبة والبعيدة، في دواوين يعمل بها موظفون مختصون، وكل مسافر سواء كان صينياً أو غربياً عليه إذا أزمع الانتقال أو السفر أن يكتب اسمه وعمره ومتاعه وحاشيته وأهله وعبيده حتى يصل إلى مقصده، حتى لا يتعرض لأي سوء، فيكون ذلك عيباً في حق ملك البلاد، وكذلك كانت عادة أهل الصين في موانيهم، حيث يصعد أمير البحر ورجاله إلى سطح كل مركب قادم أو راحل لإحصاء المسافرين جميعاً من التجار ورجال البحرية، والمستخدمين، وكان صاحب الجنك أي المركب مسئولا أمام أمير البحر عن كل من يسافر معه فإذا رجع وليس معه أحد من المسافرين سبق قيده في القائمة تعرض للحساب والعقاب، وعليه أن يثبت أنه مات أو هرب أو تخلف لسبب ما في بلد ما وهكذا، وعلى أصحاب السلع أن يثبتوا كل ما معهم من أموال ومتاجر أموال ومتاجر أمام "حفاظ الديوان" أي موظفي الجمرك حتى لا يتعرضوا للغرامة في حالة إخفائها

عنهم وكان ابن النديم والمسعودي وابن بطوطة في طليعة المؤلفين العرب اهتماماً بهذه الخاصية التي انفردت بها الصين، غير أن ابن بطوطة يزيد في تعليقه على تغريم التاجر إذا أخفى شيئاً عن موظف الجمرك عند الإحصاء فيقول: "وذلك نوع من الظلم، ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه".

ومن العادات العجيبة في الصين أن أحدهم إذا مات ظل بمنزله في حفرة من الخشب سنة كاملة، ثم يدفن في ضريح بلا لحد، ويحزن عليه أهله ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات، ومن خالف ذلك من مراسيم الحزن والحداد ضرب رأسه بالخشب، وقيل له: أنت إذن قاتلة. ويظل الميت بلا دفن حتى يحين الشهر الذي ولد في مثله، وفي نفس اليوم وفي نفس الساعة، وفي اليوم الذي يشيعون فيه موتاهم إلى مدافنهم يزدان الطريق بأنواع الديباج والحرير، كل حسب مكانته، فإذا عادوا بعد الدفن أعطوا أموال الميت لمن يتبعه[1]، وهم كالهنود يحرقون الموتى كما يقول ابن بطوطة.

وهم نباتيون لا يأكلون الحيوان ومنتجاته، ويحرمون على المسلمين أن يذبحوا البقر، ويبيحون لهم ما عدا ذلك، وإذا مرض أحدهم أعطي الجزار من المال ما ترضى به نفسه عدة أيام نظير تأجيله ذبح الحيوان عدة أيام على قدر ما يرضيه[2]، ومن قتل حيواناً قتل[3] وكفار الصين يأكلون الخنازير والكلاب حسبما شاهد ابن بطوطة في رحلته إلى بلادهم، كما أنهم

---

[1] الفهرست.

[2] تحفة الألباب.

[3] معجم البلدان.

يبيعونها في الأسواق. وإذا مات غريب في بلادهم لا يتعرض أحد لأمواله ومتروكاته وأولاده ونسائه، ويهتم أهل الصين بالحلية والزينة، ويتفاوت هذا عن ذاك في النوع والرسم بالنسبة للثياب المشتركة فيما بينهم، المصنوعة من الحرير صيفاً وشتاء، "وأشرف ما يتحلون به قرون الكركدن لأنها إذا بشرت ظهرت منها صور مدهشة عجيبة كاملة النقش والتخطيط، فيتخذون منها مناطق "أحزمة"، ويفتخرون بها، فتبلغ قيمة المنطقة "الحزام" الواحدة أربعة آلاف دينار"[١].

وهم يستكثرون من الخصيان لاستخدامهم في البلاط الملكي، ويعهدون إليهم بشتى الوظائف، فيصلون إلى أسمى المناصب الرئيسية، فيزدادون من الملك قرباً، لهذا يطمع أهل الصين في وصول أولادهم إلى هذا الشرف، فيخصونهم منذ نعومة أظفارهم، فإذا وصلوا إلى ما يريدون اطمأنوا إلى ثقة الملوك بهم، فمن حاد منهم عن الطريق المستقيم، وعاث في الأرض فساداً، قتله الملك أو على الأقل- وهو نادر- حط من قدره وجرده من شرف الوظيفة[٢].

وإذا طلب أحدهم أن يخطب فتاة من أهلها وأراد الانصراف قالوا له: دع الأرض وخذ البذر، فإذا خطف الفتاة من غير علم أهلها، ثم ضبط بها أجبروه على دفع غرامة مالية مصطلح على مقدارها عندهم، وحبسوه وربما ضربوه[٣].

ويصف ابن بطوطة أهل الصين بأنهم أهل رفاهية وسعة عيش غير أنهم

---

[١] خريدة العجائب.

[٢] مروج الذهب.

[٣] الفهرست.

لا يعتنون بطعامهم وملبسهم حتى كبار التجار الأثرياء، مع عنايتهم بالأواني الذهبية والفضية، ويجعلون من هذين المعدنين سبائك حتى تبلغ السبيكة أحياناً قنطاراً، ويضعونها على أبواب منازلهم، وبقدر هذه السبائك يضع أحدهم خواتم في أصابعه، ومن كان له منهم خمس عشرة قطعة لبس خمسة عشر خاتماً وصار يطلق عليه (ستي) كرمز على ثروته الهائلة كما نقول نحن (مليونير) مثلاً. ولا يتعامل أهل الصين بالنقود المعدنية، وإنما بقطع من الورق على قدر الكف عليها صورة الملك، فإذا بليت استطاع أحدهم أن يستبدل بها غيرها مجاناً من دار النقود التي يتولى أمرها أحد كبار الأمراء.

وعرفت الصين (الفنادق) منذ القدم، ينزل بها الغرباء متى شاءوا، وعلي النزيل أن يسلم ماله لصاحب الفندق، وهو يشتري له كل ما يريد ويحاسبه، وتنتشر هذه الفنادق في طول البلاد وعرضها، من (صين الصين غرباً إلى (بيكين) شرقاً وعلى كل منها حاكم يقيم به ومعه رجاله وخيالة، وفي كل مساء يحصي جميع النزلاء ثم يغلق عليهم الباب بنفسه، وفي اليوم التالي إذا أرادوا الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل السفر. فتح الأبواب ونادى كل واحد باسمه، وأرسل معهم من يوصلهم إلى المرحلة التالية من السفر، حتى تصل إليه من حاكم الفندق التالي شهادة بوصول المسافرين سالمين، فإن لم يفعل طالبة بذلك. ويجد المسافر في الفندق كل ما يلزمه من الطعام ولاسيما الدجاج والأوز. وتحرص الصين حكومة وشعباً على ألا ينفق الغرباء في بلادهم أموالهم في الفساد حتى لا يقال إنهم يخسرونها فيها. وذلك حرصاً منهم على سمعة بلادهم في الخارج. ويستطيع الغرباء أيضاً أن ينزلوا عند تجار مسلمين معينين لذلك، فإذا نزل غريب بدار تاجر مسلم

مثله عليه أن يحصر ماله، وعلى المضيف أن يعطي له عندما يريد السفر إلى حيث يشاء. وأهل الصين ملوكاً وحكاماً ومواطنين جميعاً يحترمون كل قادم عليهم "ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام، ولا يؤخذ منهم أعشار (ضرائب) في بيع وشراء ولا مكس، فيا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة، فهم كانوا أحق بها، ولكن ذلك للحكمة الإلهية"[1].

ومن عادة أهل الصين ولاسيما في العصر المغولي أن يستخدم (ألقان- الخان) آلاف الصناع في مدينته (خانسو) وهم في القيود، ولا يطلق سراحهم إلا بعد بلوغهم الخمسين من العمر، فيستحقون- كسائر المواطنين البالغين هذه السن- رعاية الدولة فتنفق عليهم، وإذا بلغ أحدهم الستين لم تطبق عليه الأحكام القانونية ورفع عنه التكليف احتراماً لشيخوخته ويسمي الشيخ عندهم (آطا) أي الوالد[2].

---

[1] تحفة الألباب.

[2] تحفة الأنظار.

الفهرس